خطر التوراة على الكتّاب العرب المثقفين

د. فضل بن عَمَّار العَمَّاري



التوبة



خطر التوراة
على
الكتاب العرب المحدثين

ⓒ مكتبة التوبة، ١٤١٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العماري، فضل عمار
خطر التوراة على الكتاب العرب المحدثين ـ الرياض
٣٠٢ص، ١٤×٢١ سم.
ردمك ٢ـ١٣ـ٧٠٤ـ٩٩٦٠
١ ـ التوراة ـ نقد ٢ ـ الإسلام ـ دفع مطاعن أ ـ العنوان
ديوي ٢٧٢,٢ ١٨/٢١٠٤
رقم الإيداع: ١٨/٢١٠٤
ردمك: ٠ـ١٣ـ٧٠٤ـ٩٩٦٠

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مكتبة التوبة
الرياض ـ المملكة العربية السعودية ـ شارع جرير
هاتف ٤٧٦٣٤٢١ فاكس ٤٧٧٤٨٦٢ ص.ب ١٨٢٩٠ الرمز ١١٤١٥

خطر التوراة على الكتاب العرب المحدثين



د. فضل بن عمار العماري



الإهـــداء

إلى الأخوين الجليلين:

محمد بن عثمان الغنام الموجه التربوي بالدمام

و

إبراهيم بن عثمان الغنام مدرس اللغة العربية بالدمام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

من البديهي ألا يعرض المرء للكتابات التي تنحو منحى استشراقياً أو مادياً، أي تلك الكتابات المتأثرة بآراء المستشرقين المعادية للإسلام، والكتابات التي تنظر إلى الأديان على أنها ظواهر اجتماعية خاضعة للنمو والارتقاء. ويمكن أن نختصر الحديث عن هذه في تلك الدراسات الغربية التي أرجعت الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام، إلى معتقدات وأساطير في التاريخ البشري، ومنها على سبيل المثال:

- D. Sidersky, Les Origines des légendes Musulmanes dans le Coran et dans les vies des Prophètes (Paris: Wrairie Orient aliste Paul Geuthner, 1933).

- D.S. Margoliouth, Mohammed (London: Blackie & son Ltd, Ist, 1939).

وانظر: الفولكلور في العهد القديم، جيمز فريزر ترجمة نبيل إبراهيم (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م).

ونجد في اللغة العربية، كتابات مماثلة، مثل:

ـ اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، عصام الدين حفني ناصف (بيروت: دار المروج، ١٩٨٥ م).

ـ اليهودية في العقيدة والتاريخ، عصام الدين حفني ناصف (بيروت: دار المروج، ١٩٨٥ م).

ـ رد على اليهودية، ندرة اليازجي (دمشق: دار طلاس، ط ٣، ١٩٩٠ م).

ـ التوراة باطل وخطر، نوّاف جردان (بيروت: دار الحداثة، ط ٣، ١٩٩٦ م).

ولعل منها:

ـ ملاحظات أساسية حول تاريخ المسألة اليهودية (دمشق: مكتب الخدمات المطبعية، ط أولى، ١٩٨٤ م) ص ٤٤ ـ ٤٥.

وهي ما يلخصه قول ناصف (ص ١٣٣):

«لبست التوراة والأسفار التاريخية الثوب الذي ترتديه الآن وتغير مفهوم القوم عن يهوه فبعد أن كانوا، حتى القرن السادس ق. م، يعدونه الإله القومي لإسرائيل جعلوا الآن ينظرون إليه على أنه إله العالم كله على النحو الذي يعرفه الإسلام عن الله والذي تعرفه المسيحية عن الأب في الوقت الحاضر».

إن مواقف مثل هذه الكتابات مواقف صريحة، فهي لا تزج الدين في العلم، وإنما تقيس الدين بمقاييس الزمان والمكان، خارج الإرادة الإلهية. أما ما نحن بصدده، فهو الكتابات التي لم تتبيّن عن مواقف واضحة، ولم تسلك المسلك الذي يمكن أن تُصنّف فيه؛ إنها ترفع شعارات العروبة والإسلام، وتلحّ أيّما إلحاح في التهجم على اليهود والسخرية من معتقداتهم. وتحاول أن تبث في القارىء العربي المسلم بوجه خاص، روح

الحماسة والغيرة والجهاد والحميّة، ثم هي تأخذه إلى متاهات شائكة، فيغرق في دروبها، وينسى أنه إنما يستند إلى الإسلام في الحكم، لا أن يكون الإسلام شاهداً غائباً، أي أنه يُذكر على ندرة وقت الحاجة، ثم عندما يذكرون قصص التوراة الموافقة مع القرآن الكريم، يطعنون في هذا القصص.

وحيث إننا نتناول هنا اليهود تحديداً، فمن الواجب علينا أن نتريّث عند مثل تلك المواقف، ليكون الكتاب مكتمل الحلقات، مؤدّياً لما أنيط به من كشف، وإظهار للحقيقة والتاريخ، وسيكون التركيز كثيراً على كتاب أحمد سوسة: **العرب واليهود**، لأنه الكتاب الذي يعد عند المؤرخين الآن مرجعاً علمياً موثوقاً به في تاريخ اليهود. وهو كذلك عند قراءته الأولى، ولكنه كتاب ظلّ زمناً غير مدروس، مع ما يحمل من أفكار خاطئة عمياء، ونقولات أفادت اليهود، وأضرت بالعرب وبالإسلام.

ولقد قرأت كتاب سوسة «**العرب واليهود**»، فشدني إلى قراءته، وحببني إلى مادته، وراح يدغدغ أحلامي، ويستثير كوامن وجداني وأشجاني، ولست أدري لِمَ عدت إليه ثانية لأقرأه، ولكني في هذه المرة، ابتدأت أتريث في القراءة، وأتأمل في السطور، وسألت نفسي: لماذا يذكّرنا سوسة بإيراد القرآن الكريم ذكر إبراهيم عليه السلام، ثم يخلو الكتاب على ضخامته من آيات كثيرة في القرآن الكريم تتعلق بالأحداث التي يعرضها، ما عدا تلك الآية الخاصة بإبراهيم؟ وبدأت ألاحظ أن الكتاب كتبه رجل

حصل على مراجع في التاريخ القديم وفي علم النفس والأديان، ولكنه لم يكن هو نفسه عالماً أثرياً، أو بحاثاً علمياً. إنه مهندس رَيّ، من حيث التخصص، وقد أحسن في ميدانه وأجاد، ولكنه ليس متخصصاً في التاريخ أو الآثار، فلماذا زج بنفسه في هذه المعمعة؟ وبدا لي أن مسألة الكتابة في الموضوع قد تكون لها ظروفها النفسية، وشروطها الاجتماعية، ولكن السؤال المحيّر هو: كيف حصل أحمد سوسة على هذه الريادة في مجال يجهله. إنه من الواضح أن الكِتَاب يفتقد أبسط قواعد البحث العلمي، وقد أصبح على الرغم من ذلك، مرجعاً علمياً لا مفر من اعتماده، بل إن الذين قدّموا له، جعلوه سَبْقاً ومثالاً.

والكتاب، بعد ذلك مكتوب بأسلوب عاطفي، تهميشي، يركز على أمور، ثم يسترسل مع النقول والتفنيدات التي تجعل الكتاب مجموعة من الادعاءات الفارغة، والتهجمات البعيدة عن المعقول، وقد صدر له ملخص.

وإذا اعتمد أي باحث، مهما كانت عقيدته، على المصادر، فإنه من النقض العلمي أن يهمل بعضها، ولا يراعيه، وإذا افترضنا حسن النية في سوسة، أو عدم التأهيل للبحث العلمي، فإنا سنطالبه بأهم مصدر كان يجب أن يضعه نصب عينيه، ما دام أشار إليه (أي الآية التي جاء فيها كون إبراهيم حنيفاً مسلماً)، وسنقول له: إن قصة آدم وحواء، وقصة الطوفان، على سبيل المثال، موجودتان في القرآن الكريم، ألا تعلم أنك حينما

تنكرهما، أو تجعلهما أسطورتين، تفعل الشيء نفسه بقيمتهما الدينية والتاريخية في القرآن الكريم؟ وهلُم جرا.

كلنا سنسر بأن نرى اليهود خونة مجرمين، مزيِّفين، معتدين على تراث الإنسانية جمعاء، وليس تراث الساميين وحدهم؛ ونحن نعرفهم، ذلك أن القرآن الكريم، وهو الخصم لهم، عرَّفنا بهم وحذّرنا منهم، ولكن هذا لا يعني أبداً أن نفصل بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في التوراة التي تتفق مع القرآن الكريم؟ سواء من الناحية الدينية، أو الناحية الموضوعية. ثم ما يدريك أن هذه الأساطير هي الأصل، وأن ما جاء في التوراة متَّفِقاً مع القرآن الكريم نسخة لها؟ ألا يمكن أن يكون ما جاء في التوراة متوافقاً مع القرآن الكريم هو الأصل، وأن الأساطير تحريف وتشويه وخروج بالإلٰهي إلى التفكير البشري؟؟ ولماذا لا نجعل القصص القرآني قصصاً مستقلاً بذاته، يحكي وقائع وأحداثاً تعكسها الإرادة الإلٰهية، أما القصص الإنساني، فمن إبداع الخيال ومعاناة النفس البشرية الخاصة، سيّما عندما تخضع لسلطة الشيطان وإغراء عبادة الأوثان: أي تعدد الآلهة.

ذلك سوسة في كتابه الذي كان الدافع الأول إلى عمل كتابنا هذا، أما المؤلم أكثر، والموجع شديداً، فهو أن هذا الكتاب صار مرجعاً موثقاً في علاقة اليهود بالعرب، فجرف معه كُتّاباً آخرين، فكانت المصيبة مصائب، والخراب يدمي الضمير. وهذا هو ما دفعني إلى توسيع مجال القراءة في الموضوع، وضم ما عثرت

عليه هناك إلى ما كانَ الأصلَ عند سوسة، ولا شك أني لم أشأ أبداً التعرض لهذا أو ذاك، أو التعريض بأي أحد، ولكنها الأمانة العلمية، والجرح الغائر في النفس، ونحن نجد مناهج التأليف تنتكس وتتردّى، فهل يُجيز أي عاقل أن يثق بهذه التوراة المحرفة، بكل دهاء وخبث، وخداع، وخيانة للضمير الإنساني والمسؤولية البشرية، والموجّهة توجيهاً سياسياً بكل دقة واحتراف وقصد، أي إن تحريفها ليس تحريفاً من مؤلف عفوي الفطرة، سليم الذات؛ وإنما من مؤلف حاقد، عاجز، موتور، ينظر للأمس بمنظار اليوم والغد، والمستقبل البعيد. فإذا كانت أبسط قواعد البحث العلمي، ترفض هذا ــ لا سيما نحن المسلمين الذين عرفناها حق المعرفة، فرفضناها إلاّ فيما يتوافق مع القرآن الكريم والسنّة، ولن نأبه أبداً بعدِّها مصدراً عند أيِّ غربي كان ــ فإن أي خبر فيها، يتنافى مع القرآن الكريم مرفوض مرفوض، جملة وتفصيلاً، وهو بباب الأوهام والأمراض والأكاذيب أولى منه بباب السير والخرافات والأساطير.

وإذا جاء أحد ليقول إن مَلْكِي صادق مؤمن، في حين أن إبراهيم ولوط كانا معاصرَيه، لأن التوراة المحرفة تقوله، رفضناه، ولم نعتدّ به أبداً. وأي حديث يمس أي نبي من أنبياء الإسلام بما يسيء إلى سمعتهم، أو يفسِّر علاقاتهم مع مجتمعاتهم في ضوء مرويات التوراة، هو حديث نسأل الله أن يعفو عن القائلين به، وأن يلهمهم الرشد والصواب، فقد خانهم

التعبير، وغلبهم النسيان، من حيث لم يريدوا إلا الإحسان ــ إن شاء الله ــ .

وسوف يبقى الحكم على سوسة شخصياً في ذمة الزمن، لأن الباطن لا يعلمه إلاَّ الله، وربما كان ذلك منة غفلة أو نسياناً. ونحن عندما نركز على كتاب سوسة ومن جاء بعده؛ فلأن كتابه أصبح مرجعاً علمياً يحتذى ويقاس عليه، وإلاَّ فإن عباس محمود العقاد كان قد سبقه إلى كل نتائجه، حتى إنه يعد المرجع الرئيس له. ورغم أن كتاب العقاد يحمل اسم «إبراهيم أبو الأنبياء»، فإن العقاد لم ينظر إلى شخصية إبراهيم عليه السلام على أنه نبي مرسل، وإنما دار كتابه حول تلقي فكرة التوحيد من أخناتون، وردد الأفكار نفسها حول الأساطير والاكتشافات الأثرية الخاصة بها... إلخ (انظر ص ص ٢١٦، ٢١٩، ٢٤١ ــ ٢٤٣، ٢٥٦ ــ ٢٥٩، ٢٧٠...).

إن العقاد ــ في الواقع ــ ينظر إلى الأديان ــ كصاحبه ــ نظرة تطورية، حتى إن الوحي عنده، هو شعور وإحساس؛ ولهذا جعل ضيوف إبراهيم في التوارة تشخيصاً أما في القرآن الكريم، فتجريد، بمقتضى التطور الإدراكي. ولم نهتم بالعقاد، هنا، لأننا نعد كتابه مشاركة ثقافية ــ غير موفقة ــ ولكنها ليست علمية.

وليس من هدفنا في هذا الكتاب التعريض بأحد، أو تقريعه ولومه، وإنما الهدف الدعوة إلى منهج علمي صحيح، ذلك أن علماء أجلاء من المفسّرين القدامى أخذوا كثيراً من

الإسرائيليات، وقد تعرّض ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» إلى ذكر بعضها، بل إن عالماً جليلاً معاصراً ينقل عن التوراة:

«بيت إيل» (اسم لقرية تسمى، لوز، من أرض كنعان نزلها يعقوب عليه السلام في مهاجره فراراً من أخيه عيسو وبنى فيها مذبحاً ودعا اسمه بيت إيل)، (ابن عاشور، تفسير التحرير، ج ١، ص ٤٥٠).

ويقول محمد إسماعيل إبراهيم، صاحب معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، عن إبراهيم عليه السلام:

«أراد فرعون الاستحواذ على زوجته» (ج ١، ص ٢٦).

كما يقول:

«لما قامت الحرب بين الفلسطينيين الغزاة وبين طالوت مَلِك بني إسرائيل كان على رأس الجيش الفلسطيني طاغية من أكبر الوثنيين هو جالوت (جليات)» (ص ١٠٩).

إن السؤال الملح دوماً هو: لماذا هذا التركيز على بني إسرائيل بخاصة، واليهود بعامة؟

والجواب هو: إن الله سبحانه وتعالى يقدّم للبشرية جمعاء الأنموذج الحي دائماً على الرفض والخصومة والعصيان؛ فهذه الجماعة جماعة شاذة بين البشر، فمهما أحسنت إليها، أساءت إليك، ومهما ضيّقت عليها، طاوعتك، حتى تتمكن منك، وهي قبل وبعد تُحوِّل الدنيا كلها لمصالحها الخاصة، وتُسخِّر الآيات والعلامات لدنياها وأغراضها الأبدية، الدين عندهم وسيلة، والإنسانية مطية، والعلم والمعرفة آلة، لارتكاب المحرمات

والفجور، وتشتيت أذهان البشر، يلبسون لكل عصر لباساً، ويرتدون لكل زيّ رداء، ولا يتوانون عمّا يخططون له، ولا يرتدعون عن شر حِيلَ بينهم وبينه. دخلوا الإسلام، فكان قليل منهم الصادقين، وكثير منهم له مبغضون.

ومع ذلك، فهم اليوم كما هم بالأمس، حملوا الرسالة، فأضاعوها، واؤتمنوا، فخانوا الأمانة، وجاءت المسيحية، فاندسوا فيها، وشوهوا إصلاحاتها، لأن رسالة المسيح كانت ستخرجهم من زنزانتهم الفكرية والنفسية، وكانوا يخبِّرون بالرسول ﷺ، فلما أدركوا أن الإسلام دين الله للإنسانية، تنكروا له، واصطدموا به.

وحمل القرآن الكريم الشعلة التي أضاءت منذ هبط آدم من الجنة، فعَبَرَ بالتاريخ القرون، تصدِّقه سنة نبوية طاهرة، فكان التقاء الخطوط بين غابر الأزمان، كما جاء في صحيح صحف موسى، وباركها الإنجيل، وما ضاع من صحف إبراهيم ورسالات الأنبياء؛ وهو التقاء نستدل على بعض ملامحه في هذا الكتاب.

إن هذا الكتاب ليس كتاباً في **السياسة**، وهو كذلك ليس كتاباً في **المواعظ**، وإنما هو كتاب في البحث عن الحقيقة، ذلك أن الأمّة، أيّة أمة، إذا ما هُدمت معتقداتها، وبُعثت الشكوك والرِّيب في تفكير أبنائها، استطعت بكل سهولة، أن تَمسخ شخصيتها، وأن تُحطِّم معنوياتها، فإذا ما تحقق لك ذلك، فبإمكانك جرّها إلى حيثما شئت، لا تُسأل عما صنعت، أو ما

أنت ناوٍ أن تصنع بها. ودليلك أن كُتّابنا، على جلالة قدرهم ونباهتهم، يلهثون خلف أيّ ناعق في الغرب، بحجة «المثاقفة والتوثيق». وقد كان علماؤنا الأوائل رحمهم الله، يكوِّنون أنفسهم في لغتهم أولاً، ويرْجِعون إلى علومهم، ثم يُكمِّلونها بغيرها، فتحققت لهم الريادة والسيادة.

وعلى الرغم من هذا السيل الجارف، والموج الهادر المتحدِّر، فالذي لا شك فيه أن الساحة لا تخلو من يقظة وحسٍّ حَذِر، ويكفي أن نشير إلى بعض ذلك الإنتاج، مثل:

ـ محمد علي الخولي، التحريف في التوراة (الرياض، مطبعة النرجس التجارية، ط أولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م).

ـ صابر عبد الرحمن طعيمة، الأسفار المقدسة قبل الإسلام (بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٥ م).

ـ أحمد الحوفي، حجّية التوراة (القاهرة، مؤسسة الخليج العربي، ١٩٨٩ م).

ـ عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، دراسات في النبوة والرسالة (الرياض، مكتبة المعارف، ١٩٨٤ م).

ـ صلاح عبد الفتاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن (بيروت، دار القلم، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م).

ـ محمد علي البار، أباطيل التوراة والعهد القديم (دمشق، دار القلم، ط أولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م).

ـ محمد عزة دروزة، تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم (بيروت، المطبعة العصرية، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م).

وهناك كتاب لا نعلم كيف تصنيفه، إذ هو حشد من الملتقطات والمقتطفات والحواشي الإضافية، إنه كتاب:

ـ «تأثر اليهودية بالأديان الوثنية»، لفتحي محمد الزغبي (مصر، دار البشير، ط أولى ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤)، والذي نجد فيه مثلاً:

«بين نشيد أخناتون والمزمور، ص ١٠٤» وفيه تمجيد لهذا وذاك من علماء المصريات الغربيين، ثم استشهاد بهم على نسبة النشيد والمزمور، وفي حاشيته ذكر «جهر أخناتون أو امنخوتب الرابع بعقيدته وأعلن التوحيد خالصاً فنادى بإله واحد لا شريك له، ولا محل لتعدد الأرباب والربات إلى جانبه. . » ص ٤٥١.

ومن ذلك أنه يورد قصة الخلق، كما جاءت في سفر التكوين، وفق المنهج السابق، فيأتي برواياته والاعتراضات الحديثة عليه أو تصويبها، ونجد خلطاً بين رأي عالم اجتماعي وآخر، وما استدل عليه من أساطير، ويذكر بعض آراء علماء المسلمين قدامى ومحدثين، ويعرج على قصة آدم وحواء، فيسير كما سار في السابق، أي إن الكتاب يجمع بين السرد القصصي والجمع، والمطارحات الفكرية، ثم يعقب على ذلك بما جاء عن «قصة الخلق في القرآن»، ويعيد الكرة ثانية على المنوال السابق، ولكنه ينحو نحو تنزيه القرآن وتجريده من الزخارف الخيالية

والتفصيلات الوهمية (ص ص ٥١٠ ــ ٥٥٠)، ويمكن التعرف على هـذا المنهـج المضطـرب عنـد حـديثـه عـن عـزرا (ص ص ٧٢٤ ــ ٧٢٨).

ومهما يكن أمر هذا الكتاب، فالذي يعنينا هو أن المنهج الذي نسير عليه هو الاهتمام بالأفكار والمفاهيم والأفكار: «قصة الخلق»، «قصة الطوفان»، «قصة إبراهيم»، «قصة يعقوب»، «قصة يوسف»، «قصة موسى».. الخ. حقيقة هذه القضايا كما هـي، لا مـا يصـاحبهـا مـن تفسيـرات وشـروحـات وتعليقـات، وتزيدات وأكاذيب، وهل تتوافق مع القرآن أم لا؟ لحقت بالنص التوراتي تشويهات بالغة، ذلك حق، بيد أن الحق أيضاً هو أن هناك خطأً عاماً مشتركاً بين القرآن الكريم والتوراة حول مثل هذه القضايا.

أما كتاب، جمال عبد الهادي محمد مسعود ووفاء محمد رفعت جمعة، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ (المنصورة: دار الـوفـاء للطبـاعـة والنشـر والتـوزيـع، ط أولـى، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م). فهـو يلتقـي معنـا فـي الخطـة والهـدف، والخلاف هو حول المنطلق، فعندهما عام يشمل كل دراسة، وعندنا خاص محصور في المسلمين، إلا نادراً جداً للبرهنة، كما هو حال الاستشهاد برياض البارودي فقط.

بقيت ملاحظتان لا بد منهما:

الأولى: أنك قد تجد في هذا الكتاب رأياً تستكثره على

كاتب عربي مسلم، في حين أن له كتباً في نصرة الإسلام والوقوف ضد إفساد اليهود وفسادهم في الماضي والحاضر، مثلما سيمر بك من أقوال:

التل، وحسين فوزي النجار، وصابر طعيمة، ومحمد بن مهنا العلي، ومحمد عبد الرحمن عبد اللطيف، أو تجد كاتباً عربياً مسلماً أورد ما أورد من باب التوثيق العلمي، واعتماد التوراة مصدراً، على الرغم من أنه بذل نفسه في الكتابة بعنف ضد مخططات اليهود، أو كرّس أعماله العلمية في تاريخ فلسطين، وذلك مثل: **حسن ظاظا، وسيد فرج راشد**، ومرة أخرى فما هو مذكور في هذا الكتاب هو ما كان بالإمكان الوصول إليه.

الثانية: إنا ذكرنا أن القرآن الكريم فضح أحوال بني إسرائيل وأسرارهم، وكانوا قدوة لمن يريد أن يقتدي. ولكنا نؤكد أن هذه الحالة لم تبدأ إلا بعد الخروج، أما قبل ذلك، فكانوا الضحايا والمنقَذين، ثم كفروا بنعم الله عليهم، وابتدأ التاريخ في تسجيل أعمالهم وأفعالهم، وقد تحوّل التوجّه نحو الأرض المقدسة من رمز ديني إلى رمز استعباد واحتلال وتخلّ عن كل القيم والمبادىء، ولم تفلح بعد ذلك فيهم إنسانية داود وسليمان عليهما السلام.

وللحقيقة التي لا مجال لتشويهها أن اليهود نموذج بشري؛ ليس العرب، أو الفرنجة، أو الفرس، أو الأفارقة، على تعدد مشاربهم، أحسن حالاً منهم، ولا اليهود بأفضل من غيرهم، ولو خدعوا أنفسهم بأنهم شعب الله المختار. إلا إذا اتّبعوا دين

إبراهيم، وقد فعل العرب الوثنيون بمحمد ﷺ مثلما فعل اليهود ببعض أنبيائهم، وهل نغفل عن عاد مع هود عليه السلام، وثمود مع صالح عليه السلام؟ ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾.

فإذا ما تخلى أي شعب عن عقيدة التوحيد الجوهرية، فهو لا بد آيلٌ إلى ما آل إليه بنو إسرائيل من ادعاء وتفاخر، وعبادة الرجال (الأوثان)، وما حال الصِّرْب منا ببعيد، وما وضع النازية عنا بغريب، وبالأمس كان الاسترقاق والاحتلال من قبل فرنسا وبريطانيا ــ جذور البلاء وأصل الداء ــ صورة أخرى من عنصرية اليهود وممارساتهم في السيطرة والتدمير.

وَلْنَعِ جيداً أن الغربيين ينظرون إلى القرآن الكريم، كما ينظرون إلى غيره من تأليف البشر، مهما قالوا أو زعموا، إننا نحن المعنيون بالأمر؛ المسلمون يؤمنون بما أنزل على موسى وعيسى والنبيين، كما يؤمنون بالقرآن الكريم، وحكمهم في الرفض أو القبول هو ما جاء في القرآن الكريم، وما حفظته السنة الصادقة، وبعد هذا يمكن الخوض فيما لا يجهله عاقل، ولا يكذبه برهان.

لقد أثبت تيسدال على غير هوى منه

—(Clair Tisdal The Origenal Sources of the Quran (London: Society for Promoting christia kouledge, 1985).

أن قصة الغراب موجودة في سياق قصة ابني آدم، وأن تحديد زواج الرجل بأربع زوجات وعدم تقيد (الرّبي)، موجود أيضاً في المصادر اليهودية، مما يجعلنا نحن المسلمين نحذر أشد الحذر من التسرع بالمساس بالأصول اليهودية للقصص القرآني.

ولعلنا لا نجانف الصواب، إذا قلنا: إن كتابنا العرب المحدثين، يعيدون صورة الكتّاب الغربيين في القرن التاسع عشر، حينما وجهوا كل جهودهم في الطعن في الإسلام، حتى فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية الآن، وأصبح المرء يأسف لذلك كثيراً.

والذي لا ريب فيه ــ وتجنباً لأي سوء فهم في حقيقة التوراة ــ أن التوراة التي بين أيدينا الآن، هي التي كانت متداولة معروفة في عصر الرسول ﷺ، وأن المواضع المتنازع حولها هي المواضيع التي تتعلق بمثل نبوته ﷺ وآية الرجم، ولقد شهد القرآن الكريم في عدة آيات على تحريفها، ومع ذلك أقرّ أنها موجودة قبلاً، ولا يمكن على هذا أن تكون التوراة كتاب أساطير، وإنما دخلتها هذه الرؤية البشرية المادية في التعامل مع الدين، فتصوروا الله جل وعز قوة مادية، والأنبياء بشراً معرضين للخطأ والصواب، لقد حولوا الإلهي إلى بشري، وهذا هو ديدنهم، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]
ونحن نفترض أن هذا التحريف الذي أدت إليه النوازع الآثمة، والرغبات الشريرة المعادية للكون وللبشرية، بدأ منذ زوال مملكة سليمان عليه السلام، وبلغ ذروته بعد تدميرهم على يد نبوخذنصر وبختنصر، أي إن هناك أصولاً توراتية صحيحة دُمجت فيها التأويلات الشخصية، فامتزج المتن بالشرح وتلوعب فيهما للأغراض السياسية القريبة والبعيدة، ولما جاء دارسو علم الاجتماع المعاصرون، لا سيما في القرن التاسع عشر، متأثرين بنظرية التطور، وبالأبحاث الاجتماعية فيما قبل التاريخ، وبالكتابات عن المجتمعات البدائية، كان لا بد لهم ـ موضوعياً أو إلحادياً ـ أن يطبقوا نتائجهم على التوراة، كما أشرنا إلى كتاب فريزر: «الفولكلور في العهد القديم»، وكتابات سميث في الأديان السامية، وعلى هذا الأساس كان تعاملهم مع القرآن الكريم، كما هو بين من كتاب سدينسكي، أي إن تعريض قصة الخلق مثلاً للدراسة الأسطورية، يعني بالضرورة إخضاع ما ورد في القرآن الكريم للمنهج نفسه، وهذا هو ما غفل عنه من حاول التوفيق بين هذه الدراسات، ثم عزل قصص القرآن عن قصص التوراة، على أساس التدخل البشري في التوراة، والتعبير الإلهي في القرآن، حتى أصبحت الكتب التي تنهج نهجاً أسطورياً لمؤلفين عرب، مراجع أيضاً، على الرغم من أن خطها غير ديني أصلاً.

إن مسؤولية البحث العلمي العربي المعاصر خطيرة،

وخطيرة جداً، وإذا كنتُ قد أخذتُ على عاتقي بناء دراسة جديدة للأدب العربي القديم ــ الجاهلي بشكل خاص ــ لأني وجدت أن دراسة هذا الأدب قاصرة وغير مجدية حتى الآن، بعد أن غلبت الأصوات المستوردة، والأبواق العالية، على منابع التفكير وشحذ القرائح، وزادت الطامّة عندما أصبح الأدب موجهاً للمصالح الشخصية، فإن دراسة التاريخ العربي لا تقل فداحة عن دراسة الأدب القديم، وفداحة هذه الدراسة جسيمة جسامة تؤثر على العقل والضمير، إذ إنها تتعلق بالقضايا المصيرية للعرب قاطبة، والمسلمين كافة، إنها الأرض، فلسطين، والدين، الإسلام، والأمة الإسلامية، والحقيقة أن الإصلاح مسؤولية الجيل بكامله.

وإن عبّر هذا القصور، سواء في آلة البحث، أو في التفكير والإدراك، عن شيء، فإنما يعبّر عن التردّي في كل شيء، سواء على المستوى السياسي، أو الأخلاقي أو غيرهما، وأخشى ما يخشاه المرء أن تكون بعض تلك الكتابات خاضعة للابتزاز وتحصيل المغنم، والربح السريع على حساب الحقيقة والعقيدة، أو أن يكون هناك نفاق علمي أو دجل سياسي، يُظهر فيهما الإنسان غير ما يبطن، فبهذا تتضاعف الأخطار، ولا تُحدّ الكارثة.

وإذا كان ذلك هو الواقع، فمن نعاتب أو نلوم؟

ومهما كان الأمر، فخطة الكِتاب تعتمد على عرض آراء أولئك الكُتَّاب، ثم الاستشهاد على دحض آرائهم بما جاء في القرآن الكريم. ويلاحظ أن أول الكِتَاب يسير على العرض ثم الرد

والتعليق؛ ولكن المادة تغزر بعد ذلك، ويصبح من العسير التقيد بهذا، فيكون هناك تداخل في المناقشة، وتعقب الأقوال، وهذا واضح في أغلب بقية الكِتاب.

ولا بد أن نحسب لطول الاقتباسات والنقولات حساباً، فالأمر يستدعي البيان والتوضيح والاحتجاج، وليس من اليسير الاكتفاء بالإشارة أو التلميح، أو الإحالة في الحاشية، إنها مسؤولية، ولكل امرىء ما سعى.

وأحسب أن الفضل في إخراج هذا الكتاب يعود إلى مراجعة أستاذي الدكتور/ عبد الهادي الحاج، الذي كثيراً ما نبهني إلى ما كدت أغفل عنه، والشكر بعد، للأستاذ الدكتور/ نعمان عبد الرزاق السامرائي، الذي أفادني باطلاعه على مسودة الكتاب، فجاد بوقته وجهده، وأفادني وأفادك بتعليقه، وإلى الأخ الأستاذ/ محمود عبد المالك عيد، الذي راجع الكتاب مرتين.

اللهم إنها كلمة، وفي البدء كانت الكلمة، وأنت الحق، فاجعلنا من الشاهدين.

المؤلف

الفصل الأول

وهْم الأسطورة



التوراة والأساطير

نجد في الصفحات الآتية من هذا الكتاب اعتماد التوراة كتاباً أسطورياً، أي إنها تسير على نسق الأساطير القديمة في منطقة الشرق الأوسط كله. ولم يُفَرِّق كُتّابنا المحدثون بين مفهوم الأسطورة ومفهوم القصة، ولم يستعملوا عقولهم للتفريق بين الملابسات في التوراة والحقائق الثابتة في القرآن الكريم. وعلى الرغم من أننا نتفق معهم في أن كمّاً كبيراً من الحشو والزيادة والاختلاق والبهتان شاهر ظاهر في كل سطور قصص التوراة، فإن العمود الفقري، أو القاسم المشترك الذي يجمع بعضاً من قصص القرآن الكريم والتوراة واحد، لا ريب فيه.

ومع هذا، فإن مفهوم الأسطورة في التوراة مفهوم غير دقيق، ومن أجل توضيح العلاقة بين الأساطير وقصص التوراة، نورد هنا رأي كِتاب متخصص في الأسطورة يقول:

«تبدو الأساطير الكنعانية وثيقة الصلة بمرويات العهد القديم، إنها تشترك معها في ربط الخصب والجفاف بحياة الإله أو البطل وموته، وبصحته ومرضه. ولكن من الصعب جداً المقارنة التامة بين النوعين، لا سيما في تباين الاقتباسات.

أما من وجهة النظر الجغرافية، إن لم تكن التاريخية، فإن تقاليد المرويات التوراتية شبيهة جداً بالأساطير الكنعانية، ثم إن

سوريا وفلسطين تقعان في تأثير تشابك ثقافات بلاد الهلال الخصيب، حيث عبد أبناؤه آلهة كثيرة. ومع ذلك فإن عبادة (يهوه)، إله إسرائيل، تتجه إلى معبود واحد.

ولا بدَع، فإن الإنجيل يشير إلى مرويات لها أصول ساميّة قديمة، ولكنّ توجهات الإنجيل تميل نحو التجريد، أي عدم تعدد الآلهة، أي التوحيد.

نجد هذا في قصة نوح والطوفان. ففي الأسطورة السومرية هناك خمسة آلهة، أما في سفر التكوين فلا يوجد إلا إله واحد، غاضب من شرور الإنسان، فأرسل عليهم الطوفان وأنجى نوحاً.

وفي قصة الخلق ـ مقارنة بأسطورة الرافدين ـ لا يوجد هنا صراع بين طوائف من الآلهة، وليست هناك مقاومة ضد الوحش البدائي. فيهوه، وحده، خلق العالم. حقاً هناك آثار من آثار الأساطير الكنعانية.

وعلى الرغم من هذا، فإن يهوه يتجاوز كونه إله الخصب، ولا توجد قصة عن موته، أو اختفائه، أو عودته.

وعندما نقارن الأساطير الكنعانية بالقصص الإنجيلية، فإنّا نفتقد وجه الشبه بينهما، ولا يظهر هذه الشبه إلا في الأسفار المتأخرة.

ولعل من المصادفات أن يكون الشبه قريباً جداً بين المزامير والقصائد الأوغارتيه»[1].

فإذا أريد حقاً لنا أن نستدلِ على الأسطورة في التوراة بأساطير العالم القديم؛ فيمكن أن نقارن هذه بما أوردته التوراة مثلاً عن لوط:

«سكن في الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً في تلك الليلة، ونضطجع معه، فنجني من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وتكرر الحال في اليوم التالي مع الصغيرة، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. . . »[2].

«ويرى بعض علماء الأساطير أن هذه القصة (تضمينة أسطورية مهاجرة من أصل مصري) وترد في الميثولوجيا المصرية، مرتبطة بإلهة الموت نفتيس التي سمّاها بلوتارخ «أفروديت» إذ تروي الأسطورة أن هذه الآلهة كانت تتمنى أن تنجب طفلاً من أخيها الأكبر أوزوريس، ولهذا الغرض أسكرته، وضاجعته، وكان ثمرة هذا اللقاء إنجابها للإله «أنوبيس»[3].

---

(١) Cavendish, Mythology, PP. 95.

(٢) سعفان، دراسة في التوراة والإنجيل، ص ١٤.

(٣) المرجع نفسه.

ولكن علينا أن نكون حذرين في اتباع الآخرين كأن نقول:

«يذكر بارنز أن الباحثين المحدثين مثل دلينزس وونكلر وروجرز قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد الدينية في الديانة اليهودية، وبخاصة في اقتباس قصة الخليفة... والطوفان، وما إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية في اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح»[1].

ومرة أخرى، فإن القصة قد تكون متداولة ومعروفة من قبل أكثر من نبي، وأكثر من شعب، وجاء القرآن الكريم، فأكدها، فهي حقيقة دينية، وليست أسطورة.

جنـة عـدن

يستعرض سوسة ما سماه:

فكرة الفردوس عند السومريين والساميين.

فيقول:

«إن فكرة الفردوس الإلهي كان أول من إبتدعها الساميون العموريون الذين استقروا على ضفاف نهر الفرات في جوار عانة وهيت لأن أكثر العلماء الآثاريين متفقون على أن الساميين كانوا قد نزحوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات في حوالي الألف

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٢.

الرابعة قبل الميلاد. وهكذا فقد حددوا موقع الجنة بالنسبة إلى مستقرهم على نهر الفرات في رأس دلتا نهر الفرات حيث تبدأ تفرعات النهر فوصفت بكونها تقع على نهر الفرات في المكان الذي يتفرع النهر فيه إلى أربعة فروع. هي فيشون وجيحون وحداقل والفرات، فيمثل الأول منخفضي الجبانية وأبي دبس، والثاني نهر الهندية الحالي والثالث مجرى الصقلاوية القديم، أما الرابع فهو نهر الفرات أي المجرى القديم المعروف بنهر كوثا... والأرجح أن مدوني التوراة اقتبسوا هذه القصة من الساميين العموريين الأوائل عن طريق البابليين فأدخلوها في التوراة»[1].

ولسنا ندري أغفل سوسة عن ذكر جنة عدن في القرآن الكريم مرات كثيرة، أم أنه كان مندفعاً وراء تلقّف كل إشارة قديمة، لينسبها إلى ما قبل التوراة، فيختلط الحابل بالنابل، وتصبح مرويات القرآن الكريم كسابقاتها. يقول تعالى:

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحجر: ٤٥].

---

(١) سوسة، العرب واليهود، ص ٣٥٩، وانظر ص ٣٥٨.

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الصف: ١٢].

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ ﴾ [مريم: ٦١].

قصة آدم وحواء

لعل من المجدي أن ننقل هنا ما جاء في كتاب سوسة عن هذا الموضوع، وهو:

قصة آدم وحواء في تصوير السومريين

نقش سومري

«مما يثير الدهشة والغرابة أن المكتشفات الأخيرة قد دلت على أن قصة آدم وحواء بما فيها قصة جنة عدن التي وردت في التوراة قصة قديمة ترجع جذورها إلى عهود ما قبل التوراة، فقصة آدم وحواء التي تشير إلى إغراء الحية لحواء وتناول حواء وآدم من ثمر شجرة معرفة الخير والشر بالرغم من منعهما من الأكل منه، إن هذه القصة ذاتها، نجدها مصورة على نقش سومري يشاهد فيه رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما تشبه شجرة النخل على عذقان من التمر من طرفيها، ويشاهد الرجل ماداً يده اليمنى نحو العذق أمامه ليقطف من ثمره أيضاً، ثم تشاهد الحية وهي منتصبة

على ذنبها خلف المرأة تغريها في الأكل من هذا الثمر المحرم عليها أكله. وهذا دليل على أن شجر النخل وجد على تربة جنوب العراق منذ أقدم الأزمنة وأن شجرة معرفة الخير والشر هي شجرة النخل بالنسبة للسومريين. ومما يذكر أن هذا النقش التاريخي وضع قبل التوراة بزهاء ألفي عام. مع العلم أن البعض يشك في كون هذه الصورة تمثل قصة آدم وحواء من غير أن يعطي هؤلاء تفسيراً آخر ونحن نميل إلى ضم صوتنا إلى أصوات القائلين بأنها تمثل القصة لأن الصورة تتكلم عن نفسها دونما حاجة إلى شرح»[1].

رد وتعليق

لا شك أن الحية مذكورة في الأسطورة، كما هي مذكورة في التوراة، ولكن شخوص القصة تنحو منحى القصة: آدم، وحواء والثمرة، والشيطان، مذكورة في القرآن الكريم. وكان ينبغي أن نستبعد عنصر الخيال من القصة، كما ذكرنا، فنحكم عليه بالوقاحة، أو الصلف، أو الكفر، ولكن ليس لنا أن ننكر القصة برمتها، بل علينا ألا نتسرّع في المقارنة، إذا لم نبيّن ذلك. فالشيطان في القرآن الكريم استُبدل بالحية فقط، وهذا الاستبدال لا يخرج القصة إلى ميدان الأسطورة، مادامت عناصرها الرئيسة موجودة في القرآن الكريم. إن علينا أن نبيّن كيف خرج اليهود بأصل القصة من حقيقتها إلى ربطها بما هو موجود في التراث

(١) سوسة، العرب واليهود، ص ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨، وانظر ص ٣٥٩.

السابق عليهم، مع التأكيد على أن الأصول: آدم وحواء والثمرة والشيطان، أصيلة في القصة التوراتية، أي إن الأصل كان الشيطان الذي تم استبداله بالحية.

والملحوظ أن هذا الاستبدال كان معروفاً. وقت ابن عباس وغيره من أصحاب النبي ﷺ:

«أراد إبليس أن يدخل عليهما الجنة، فمنعته الخزنة، فأتى الحية، وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البعير، وهي كأحسن الدواب ـ فعلمها أن تدخله في فمها حتى تُدخل به إلى آدم، فأدخلته في فمها. . . .»[1].

وكان الأجدر بسوسة ألا يعتقد هو نفسه بها، وأن يقبل كونها نقشاً وثنياً، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١٢٣].

---

(١) الطبري، تفسير الطبري، ج ١، ص ٥٢٧.

ويقول عزّ وجلّ، عن إغراء الشيطان في الجنة لآدم وزوجه عليهما السلام:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٧].

قصة قابيل وهابيل

وهذه هي القصة التي يستحسن أن نأتي بها، لنتبين المنهج الذي سار عليه سوسة، واتبعه فيه كثيرون، فهو يقول:

«قصة قابيل وهابيل التوراتية في الملاحم السومرية

وقد اتضح من الأساطير السومرية التي عثر عليها المنقبون أن قصة قابيل وهابيل الواردة في التوراة والتي تمثل النزاع بين الفلاح والراعي ترجع جذورها إلى عهد موغل في القدم أيضاً، فمن الأساطير السومرية قصة تدعى «ايميش واينتين» وهي شبيهة بقصة «قابيل وهابيل» في التوراة وتتلخص الأسطورة بما يأتي: ـ أراد إله الهواء «أنليل» أن تنمو الأشجار والحبوب وأن تحل في البلاد الوفرة والرخاء فخلق لهذه الغاية مخلوقين أخوين هما «إيميش» و «أينتين» ليعتنيا بشؤون الزراعة والفلاحة وتربية

الحيوان، ويبدو من سياق القصة أن نزاعاً شب بين الاثنين أفضى بهما إلى التحكيم، ولكن «أنليل» اختار «أينتين» وجعله فلاح الآلهة. وتتألف هذه القصة من ثلثماية سطر أكثر من نصفها كامل لا إيهام فيه».

ولا يكتفي سوسة بهذا، بل ذهب يجمع أساطير أخرى، ليجعلها أساس قصة قابيل وهابيل، فيقول:

«ومن الأساطير الأخرى التي تمثل طرفاً في النزاع المستحكم بين البدو والحضر، بين الراعي والفلاح، أسطورة الإله «لهار» إله الماشية وأخته الإلهة «إنشان» إلهة الحبوب. وهذه القصة تدور مثل القصة الأولى حول أصل النزاع بين قابيل وهابيل وخلاصتها أن «لهار» و «إنشان» نزلا من السماء وخصص الإلهان «أنليل» إله الهواء و «أنكي» إله المياه. الماشية إلى «لهار» وعينا له الخضار والعشب وبنيا لإنشان بيتاً وقدما لها النير والمحراث، وهكذا يبدو الصفاء بين الأخ الراعي والأخت الفلاحة ويمضيان دون حدوث ما يكدّر تعاونهما وعيشهما. ولكن بعد حين تظهر فكرة الرواية، وهي العداء المستحكم بين الراعي والفلاح أو بين «أهل المدر والوبر»، أي بناة الطين وبناة الشعر أو الحضر والبدو، وذلك عندما شربا الخمرة وثملا، فبدا الشجار والخصام بينهما في المزارع والحقول. ودار النزاع فيما بينهما بأن يأخذ كل منهما يمتدح ويعظم أعماله ونتاجه ويزهد في أعمال الآخر. فاضطر

الإلهان، أنليل وأنكي، إلى أن يتدخلا بين الأخت والراعي. أما نتيجة هذا القرار فمفقود»[1].

ولا يكتفي سوسة بمثال أو مثالين، بل يستشهد بثالث، فيقول:

«وهناك أسطورة سومرية ثالثة شبيهة بقصة قابيل وهابيل سميت «أنانا تفضل الفلاح» وهي تمثل فكرة النزاع بين الفلاح والراعي أيضاً. وأبطال القصة أربعة هم «أنانا» وأخوها «أنو» إله الشمس و «دموزي» (تموز» الإله الراعي، و «أنكيمدو» الإله الفلاح، وخلاصتها أن «أنانا» عزمت على اختيار زوج لها وكان أخوها «أنو» يحثها على الزواج من «دموزي» (الراعي)، ولكنها كانت تفضل «أنكيمدو» (الفلاح)، فيأتي إليها «دموزي» ليعرف السبب الذي يجعلها تفضل الفلاح عليه. إلا أن «أنانا» لم تبد جواباً، ويظهر أن «أنكيمدو» راح يسعى لترضية منافسه الراعي، بيد أن الراعي يأبى الانثناء عن عزمه إلى أن يعده الفلاح بتقديم أنواع من الهدايا لإرضائه. وهنا يتعذر فهم ما تبقى من كتابة الرقيم، غير أن الظاهر أن «دموزي» الإله الراعي قد تغلب على «أنكيمدو» الإله الفلاح»[2].

ويردد الفاروقي الصوت نفسه، فيقول:

---

(١) العرب واليهود، ص ٣٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣.

«ترمز هذه القصة إلى تقابل الرعاة، وهم سكان البادية، مع الفلاحين، وهم المستقرون في أرض الفلاحة في ديار الشام، وما بين النهرين».

ثم يقول:

«لنقارن بين قصة التوراة وقصة سومر».

وتكون النتيجة بعد ذلك:

«نعم، لقد فضل الله هابيل على قابيل إلا أن هابيل أصبح أباً للجميع».

وكما هي عادة الكتّاب من هذا النوع، يأتي، ليقحم القرآن الكريم في الاستشهاد، فيقول:

«ولقد فضل الله بعد نوحاً وهذا التفضيل الثاني... يقوم على أخلاقية نوح وفساد الشر...»، أو كما قال الله تعالى:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ ــ ٨].

وهنا اضطراب في التعبير، لا يكشفه إلا قوله عن تفضيل نوح:

«التفضيل هنا تفضيل خلقي، والتفضيل الخلقي واجب لا غبار عليه. وهو التعبير الذي اقتبسته لغة الأساطير...»(١).

---

(١) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ص ١٧، ١٩.

والحق أن في التوراة شبهاً بما في الأسطورات الثلاث، ولكن هذا الشبه ينحصر في كون قابيل: «راعياً للغنم»، وقابيل: «عاملاً في الأرض».

(تكوين الإصحاح الثالث ٧)

وليس في قصتهما آلهة، بل: «الرب».

ثم إن محاولة إيجاد شبه بين الأسطورات الثلاث والقصة التوراتية محاولة غير موفّقة أبداً، إذ إن عقدة القصة في الأسطورات الثلاث تنحلّ باتّفاق الطرفين؛ أما عقدة القصة في التوراة، فلا تنحل إلا بالتخلص من أحد الطرفين، ونَدَمِ القاتل، وغضبِ الرب عليه، فكيف يجوز الجمع بينهما في شبَه واحد..؟ أليس من البيِّن أن القصة التوراتية غير القصة الأسطورية؟

قصة الطوفان

وإذ نمضي قدماً في الربط بين ما جاء في الأساطير السومرية والبابلية والكنعانية، وما جاء في التوراة نجد تأثير سوسة كبيراً في غيره، فسوسة يقول:

قصة طوفان نوح في التوراة وفي المدونات السومرية والبابلية:

مما لا يقبل الجدل والشك هو أن قصص الطوفان الواردة في الروايات السومرية والبابلية تتفق تماماً مع ما ورد في التوراة

فيما يتعلق بأسباب الطوفان، إنه فساد البشر وعدم إطاعتهم لإرادة الخالق وآثام الإنسان وخطاياه، مع الفارق بين الشرك السومري والبابلي من جهة وبين الوحدانية اليهودية من جهة أخرى»[(١)].

ومع أنه احتاط هنا، فقال: «الوحدانية اليهودية»، الذي يُفهم منه أن وحدانية اليهود، تطور عن الشرك في الأسطورة البابلية، فإن هذا القول نفسه، ينقض كل أطروحته، لأن اليهودية التي يدرسها من التوراة، ليست دين توحيد، وإنما دين تعددية وثنية.

وقد تأثر بسوسة آخرون، ممن لهم خط إسلامي معروف، ولكنهم انجرّوا وراء مزالق سوسة، فمن هؤلاء محمد شلبي شتيوي، الذي يقول عن الكهنة واليهود في كتابه: «التوراة دراسة وتحليل»:

«اعتمد هؤلاء الكهنة في كتابتهم للتوراة على الفكر البابلي، فلقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تحكي قصة الخليقة والطوفان و«قصة الخليفة في العقائد الإسرائيلية الأولى تشابه قصة الخليقة في ألواح بابل»[(٢)].

أما كامل سعفان، فيقول، مثلما قالا، وهو رجل ذو خط إسلامي واضح أيضاً:

---

(١) سوسة، العرب واليهود ص ٣٦٣، وانظر ص ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.
(٢) التوراة دراسة وتحليل، ص ٤٧.

«الطوفان ــ ما هو إلا ما بقي في أذهان العبريين وقت كتابتهم هذا الجزء من التوراة بعد ذلك، مما جلبه معه إبراهيم من معتقدات بابلية، ولقّنها أولاده، وبقيت تنتقل بالرواية من جيل إلى جيل، حتى أيام تدوينها، على عهد سليمان بن داود»[١].

ويتكرر هذا التأكيد في قول عبد الوهاب زيتون أيضاً[٢]. إلا أن سعفان يفوق غيره في تجاوز تأكيد الأسطورة، إلى حد أن يقول:

«ومع ما في قصة الطوفان الذي أغرق العالم كله من تعارض مع مبادىء الجيولوجيا البسيطة، فإنها تشبه طوفان......»[٣].

بل يخطو خطوة أبعد من هذا، فيقول:

«هناك حكايات أغريقية قديمة عن الطوفان، بطلها (نوى) وهو الاسم الإغريقي المرادف لكلمة (نوح)، كما أن هناك حكايات هندية، و.......»[٤].

وهذه أخطاء علمية فظيعة لا يمكن السكوت عليها، بل هي أخطار على العقل والتفكير، لأنها ألقت ــ دون إدراك منها ــ النص القرآني، فاتّبعت الهوى في الأحكام. وكيف يكون كل هذا

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ٨.
(٢) الأصولية في اليهودية، ص ص ١١٣ ــ ١١٥.
(٣) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ١٢٤.
(٤) المرجع نفسه.

والقرآن الكريم ينص على واقعه، يقول جل شأنه:

«﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾» [هود: ٣٧ ـ ٤٥].

إدريس عليه السلام

اعتمد الكتاب المحدثون على التوراة المتداولة اعتماداً كلياً، وكان المفسرون قبلهم يعمدون أحياناً إلى الاستشهاد بما جاء في التوراة وما بلغهم من الإسرائيليات. وازداد الكتاب المحدثون تمسكاً بأقوال التوراة عندما وجدوا الغربيين يتّخذون تأريخاتها أساساً لتقدير الأزمنة، فظهور آدم عندهم كان في حدود ٦٠٠٠ ق.م، ووجود نوح كان عام ٩٩٣ ق.م، أما إدريس،

فعاش في الفترة ما بين عامي (٤٥٣٣ ـ ٤١٨٨ ق.م).

ويتعدى هذا الاتجاه إلى الربط بين: إدريس وأوزوريس، كما زعم ذلك طه يونس:

«إن إدريس وأوزوريس ما هما إلا شخص واحد».

وذلك:

«إن أوزوريس لم يكن له أية علاقة بعبادة الشمس، وأن كهنته عندما اشتد ساعدهم سلبوا صفات الآلهة الآخرين ومنحوها له وجعلوه شريكاً لرَعْ إله الشمس».

وإضافة إلى هذا، فإن إدريس «هو أبو جد سيدنا نوح عليه السلام». وعلى الرغم من أن «بعض المؤرخين يذكر أنه ولد ببابل (في العراق)، وهاجر إلى مصر ونشر دعوته بين أهلها وكان ذلك قبل عصر اوسرات...»(١).

رد وتعليـق

سيطول بنا الجدل حول التحقق من ذلك الأمر، ولكنّا نختصره بالقول: إن إدريس الذي جاء ذكره في القرآن الكريم:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦ ـ ٥٧].

---

(١) حياة الأنبياء بين حقائق التاريخ والمكتشفات الأثرية الجديدة، ص ص ٢٠ ـ ٢٦.

لا يتحتم أن يكون هو أوزوريس. وأن عبادة الشمس عبادة وثنية سحيقة. ويحسن ألا نخوض في مسائل كهذه، وألا نتورط في الربط بين أحداث العهد القديم وما جاء في القرآن الكريم، إلا إذا أثبتت الآيات القرآنية ذلك، أو جاء هذا في حديث صحيح.

وهذا يعني أن لا صحة لتلك المزاعم، وأن إدريس عليه السلام نبي من أنبياء الله المرسلين، الذين حدثنا عنهم القرآن الكريم، فلم يُدْلِ بتفاصيل يمكن أن نستنتج منها مثل تلك الاستنتاجات.

قال تعالى:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥].

ولا يبعد أن يكون إدريس عليه السلام غير بعيد في سيرته من إسماعيل عليه السلام، أي إنه لن يتجاوز الألف الثانية من الميلاد، متناسين نَسَبه كما تُوهِمنا التوراة المحرّفة به.

يونس عليه السلام

يقول خيّاطة:

«وأخبار الأيام تبلورت في شكلها الحالي في القرن الأول الميلادي فيونان (يونس)، ليس هو الذي وضع السفر المعروف باسمه، وقصته مع الحوت قصة خيالية لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وقد أيد هذا الرأي القديس غريغورس النازيانزي»[1].

---

(١) قرأت في التوراة، ص ص ٣٦ ـ ٣٧.

فبهذه السرعة والعجالة لا يعبأ كاتب عربي مسلم يستشهد في كتابه بالقرآن الكريم عدة مرات، ثم يتخبط هذا التخبط الذي يمس جوهر العقيدة وأساس الدين؛ ففي القرآن الكريم سورة كاملة تحمل اسم (يونس) عليه السلام، وجاءت آيات في غيرها تحكي قصته، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٩ـ١٤٨].

وقال عز من قائل:

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القلم: ٤٨ ــ ٥٠].

وقال سبحانه عن يونس «ذو النون» عليه السلام:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ولعل هذا الموقف يختصر لنا كل قصور نوجهه إلى كتّابنا

المحدثين، فبدلاً من التسليم بوجود القصة، ومقارنتها بمنطق وتعقل بسفر يونان في التوراة، يسلطون غضبهم على كل ما جاء في التوراة، وقد كان حريّاً بهم أن يشيروا إلى وجود التحريف في القصة بإدخال فكرة الإله «يهوه» فيها، ثم توجيه النقد لها من هذا الجانب، فإذا بهم هم يجرفون معهم مرويات القرآن الكريم، ونكون بذلك قد أتينا على كل ما نريد تقويمه وسداده، في حين أن قصة يونان في التوراة مثال رائع يمكن القياس عليه في الحكم على مدى اختلافها عن القصة القرآنية.

وهذا التشويه هو ما يريده اليهود!!

الفصل الثاني

الواقع التاريخي

إبراهيم عليه السلام

الأسطورة

يقول سعفان عما ورد في سفر دانيال، عن حلم نبوخذنصر:

«إبراهيم ــ كما ورد في القرآن الكريم، وأغفلت التوراة ــ كاد له الكفار، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» فنجاه الله من كيدهم.

«قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» أبو الأنبياء قد أصبح (شذوخ وميشح وعبدنغو) الذين رفضوا السجود لتمثال نبوخذنصر، فأمر (بأن يحموا الأتون..)»[1].

ثم يعقب قائلاً:

«قد يقال هذا الخيال مستمد من أسطورة هندية تقول إن راما تزوج من سيتا بنت الملك جناكا، ولكن رامتا الشرير اختطفها، فلما استعادها راما بعد قتل رامتا، اتهمها بأن رامتا قد طوقها بذراعيه، فدنسها بذلك إلى الأبد، وفي سبيل إثبات عفتها ألقت بنفسها في النار، لكن الإله براهما حسر عنها اللهب، وخرجت

(١) دراسة في التوراة والأنجيل ص ١٣٨.

بغير سوء، يقودها أجنى إله النار، الذي أعادها إلى راما، فأصبحت النار وسيلة تبرير وتبرئة أو تطهير».

وبعد ذلك يقول:

«مع احتمال وصول الفكر اليهودي إلى الأسطورة الهندية، فإن قصة إبراهيم أقرب وألصق وأبسط»[1].

رد وتعليق

ماذا يقول المرء وهو يرى الشيء ونقيضه في كفة واحدة. استشهاد بالقرآن الكريم من غير داع للاستشهاد، وتصيّد للأساطير والخرافات، مهما تباينت مضموناتها؟ التوراة لم تورد حرق إبراهيم، وأورده القرآن الكريم دليلاً ساطعاً على صدق القرآن وتفرده، ومن ثم بعده عن التأثيرات الفولكلورية، وحلم نبوخذنصر يحتمل كل تفسير، سياسياً من جانب اليهود، ونفسياً من جانب نبوخذنصر، هذا إذا كان ذلك قد وقع ولم يكن من مطاعن اليهود، ولا دخل لهذا الهراء بإيراد أسطورة هندية وغير هندية. أما كان لازماً لسعفان وغير سعفان، أن يتحروا العقل واليقين، فلا يدعوا لأنفسهم جناح الخيال يحلق بهم، فيأتوا بما هو حجة عليهم ولا برهان لهم عليه؟

---

(١) المرجع نفسه.

يستنتج سوسة من سيرة إبراهيم:

«إن إبراهيم الخليل عليه السلام ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد أي قبل حوالي أربعة آلاف عام»[١] على أرجح الروايات:

«إن مدينة كوثا كانت مسقط رأسه»[٢].

ثم إن عصر إبراهيم الخليل هذا هو عصر عربي قائم بذاته مرتبط بالعرب البائدة، يقول: «انحدر إبراهيم إلى مصر»[٣].

أما لوط أخوه، كما يقول، فاختار:

«أن يرتحل إلى سهل الأردن حيث كانت سدوم وعمورة»[٤].

وهكذا يتحدث عن رحلة إبراهيم عليه السلام، فيقول:

«لما نادى إبراهيم الخليل بعقيدة التوحيد بين قومه الوثنيين لاقى كثيراً من أنواع التعذيب والاضطهاد، وقد خرج منها سالماً، ثم دحر نمرود بينما سار إبراهيم وأتباعه إلى حران (حران حالياً) ومنها إلى أرض كنعان (فلسطين)، وقد اجتاحت البلاد موجة من القحط والغلاء فانحدر إبراهيم هذه المرة إلى مصر، وكان لوط

---

(١) العرب واليهود، ص ٤٣٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٣٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٣٣ ــ ٤٣٧.

(٤) المرجع نفسه.

ابن أخيه معه، فأقام في مصر مدة من الزمن صارت له فيها ثروة كبيرة، وقد أصاب لوطاً من غنى عمه شيئاً غير يسير، ثم غادر إبراهيم مصر وكل ما كان له عائداً إلى كنعان وأقام في حبرون، وهي اليوم الخليل»[1].

ويستطرد في بقية وصف حياة إبراهيم، قائلاً:

«ثم وقع نزاع بين رعاة إبراهيم ولوط أدى إلى انفصالهما فاختار لوط أن يرتحل إلى سهل الأردن حيث كانت «سدوم وعمورة» وحدث بعد هذا أن بعض ملوك البلدان الواقعة على الفرات أغاروا على مدن سهل الأردن فأخذوا سدوم وأسروا لوطاً مع أهل بيته واستولوا على أملاكه. فلما بلغ الخبر إبراهيم سلّح غلمانه وعبيده وكبسهم ليلاً فكسرهم واسترجع لوطاً، وأملاكه ونساءه وجميع الأسرى وكل ما كان لهم، فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه وباركه ملكي صادق ملك شاليم (أورشليم) قائلاً: «مبارك أبرام من الله العلي مالك السموات والأرض، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك» فأعطاه إبراهيم عشراً من كل ما استولى عليه وأبى أن يأخذ لنفسه شيئاً من الغنيمة»[2].

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٤٣٦ ــ ٤٣٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٤٢، وانظر مثل هذا، سيد فرج، القدس عربية إسلامية، ص ٤٥.

وقد رسم سوسة خارطة تمثل خروج إبراهيم عليه السلام من بلدته، تتجه شمالاً، ثم تنعطف جنوباً إلى فلسطين.

ويتبع كامل سعفان الخط السالف، فيقول:

«وينبغي ملاحظة أن هجرة إبراهيم لم تكن هجرة أفراد، بل كانت هجرة جماعات، تضم الزوجات والأبناء والعبيد وما يملكون من الحيوانات.

من أجل هذا تمكن إبراهيم من الوقوف بجيش عدته ٣١٨ رجلاً من أهل بيته في مواجهة (كدر لعومر) والملوك الذين معه، طاردهم (إلى حوبة التي عن شمال دمشق).

وهذه الهجرة الجماعية لم تكن تأخذ طريقاً أمماً، بل كانت تنتجع المراعي، ولم يكن لها هدف محدد... ومن ثم مر إبراهيم ببلاد كثيرة استضافته، وأكرمت مثواه، وصاهر منها، وانتهى مطافه إلى هذه الأرض التي تزخر بشعوب كثيرة: قنزية، وقينية، وقدمونية، وفرزية، ورفائية، وأمورية، وحرفاشية، ويبوسية، وحيثية، وكنعانية، وفلسطينية»[1].

ويأخذ خروج إبراهيم عليه السلام شكل نقل الحكايات، اقتفاء لأثر التوراة التي تمزج السمّ بالعسل، فنجد محمد عبد الرحمن عبد اللطيف، يقول:

«خرج إبراهيم من أور إلى حاران ومنها عبر الفرات إلى بلاد

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ٨.

ما بين النهرين وتوجه غرباً إلى سوريا ثم توجه جنوباً إلى أرض كنعان حيث استقر به المطاف في حبرون التي أصبحت بعد ذلك الخليل. وأثناء رحلته تلك كان يدعو إلى عبادة الله وينشر دعوة السماء ووضع لواء التوحيد فيزداد المنضوون تحت رايته ويتكاثر المؤمنون بدعوته»[1].

ويناقش رحلة إبراهيم إلى مصر، فيرفض أنها: «كانت بسبب القحط والجوع». كما تقول التوراة، ويرى: «أن إبراهيم انحدر إلى مصر مستغلاً وجود قبائل الهكسوس العربية الأصل والتي تتكلم نفس لغته، وإن اختلفت اللهجة يعرض عليهم رسالة التوحيد»[2].

ويأتي عبد الوهاب زيتون بقول لم يسبقه فيه أحد، حين يقول: «الشارحون لنصوص القرآن لا خلاف في ذلك بينهم أن اليهود هم المقصودون بقوم لوط»[3].

رد وتعليق

تستوقف الدارس عدة ملاحظات تخص هذا الرأي، منها:

١ ـ أن الدراسات الحديثة لم تتفق بعد على تحديد موطن إبراهيم، فبعضهم يقول: إنها كوثى، وبعضهم يقول: إنها

---

(١) وعد الله ليس لبني إسرائيل، ص ٣٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦، وانظر ص ٩٧.
(٣) الأصولية اليهودية، ص ٢٩.

أور، وبعض آخر يقول: إنها خلدة. . . الخ.

٢ ـ أن إبراهيم لا يمت بصلة إلى الجماعات السامية الحديثة التي ذكرها سوسة من كنعانيين وآشوريين وبابليين، وإنما ترتبط صلته بذرية من كان مع نوح عليه السلام، في زمن لا نعلمه، ينتمي إلى حادثة الطوفان العظيم قال تعالى في نوح:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ۝٨٣﴾ [الصافات: ٨٣].

٣ ـ أن قوم إبراهيم، إما أنهم بقية من البقايا القديمة التي دخلت في المجتمع البابلي الجديد، فأصبحوا الآن جزءاً منه، وإما هم بقايا قوم نوح، وعلى كل الأحوال، فإبراهيم جزء من هذا المجتمع، ولم يأت من خارجه. قال تعالى:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنعام: ٨٠].

وقال عز وجل:

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ۝٨٥﴾ [الصافات: ٨٥].

٤ ـ أن لوطاً لم يكن أخا لإبراهيم على الإطلاق ولم يكن ابن أخيه، بل كان نبياً مبعوثاً ومعروفاً لأداء الرسالة السماوية. قال تعالى:

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ۝٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥﴾ [الأنبياء: ٧٤ ـ ٧٥].

وأوضح دليل على أن لوطاً وقوم لوط، هم غير إبراهيم وقوم إبراهيم، قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الحج: ٤٢، ٤٣].

فهؤلاء أنبياء مختلفون، بعثوا في أقوامهم المختلفين؛ فكل قوم ونبي، جماعة خاصة غير الأخرى.

وإنه في الفترة التي كان إبراهيم يدعو فيها قومه، وينشر دعوته بين الناس وهو فتى، كان لوط أحد من يستمع إليه، فتقبل دعوته، يقول تعالى، بعد أن ذكر جدال إبراهيم مع قومه وعزمهم على حرقه:

﴿ ۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وظل لوط يدعو قومه على تلك الحال، حتى هجرة إبراهيم إلى الأرض المقدسة، ثم جاء ذكر لوط ثانية بعد أن بشر الله إبراهيم بإسحاق، وهو شيخ كبير هناك، حيث رحل لوط بعد ذلك إلى الأرض المقدسة:

﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧].

ترينا النظرة الشاملة في مقولات الكتاب العرب السابقين أن

كل تلك الأقاصيص التي دارت حول الخصومة بين رعاة أغنام لوط وإبراهيم، وغيرها، هي أقاصيص جاءت من تلفيقات التوراة؛ وإن محاولة أولئك الكتاب تتبّع سير رحلة إبراهيم، إن هي إلا تطبيق لحكاية التوراة نفسها وتصديق الغربيين بها.

لقد جاء إبراهيم إلى البرية، برية الأرض المباركة، فلسطين، وإن كان هناك من يذهب إلى أنها جزيرة العرب، وسكن فيها وأقام، وأوجد قطيعة مع سكان الأرض من كنعانيين وأروميين وفريسيين (واتجه نحو الغرب، نحو مصر، فرحل هناك وتاجر، وعاد، وواصل الرحلة والاتّجار بقية حياته، واقتفى أثره أبناؤه). يقول الله تعالى على لسان أبناء يعقوب:

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨٢].

فهنا تمييز صريح بين الحاضرة (القرية)، وبين البادية (العير)، وقد تكررت في سورة يوسف بالذات كلمتا البدو والعير، مرتبطتين بآل يعقوب:

﴿كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ﴾ [يوسف: ٦٥].

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: ٧٠].

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢].

يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: «عطف على جملة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١].

على أنه بعثه بشريعة خاصة، وإلى قوم غير القوم الذين بعث إليهم إبراهيم، وإلى أنه كان في مواطن غير المواطن التي حل فيها إبراهيم»(١).

فقوم لوط ولوط غير قوم إبراهيم وإبراهيم، وهذا ما نتبينه في قوله تعالى، مميِّزاً قوم لوط عن غيرهم سيما إبراهيم:

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود: ٧٨].

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [هود: ٧٤].

﴿ وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [هود: ٨٩].

أما خروج إبراهيم من بلاده، فواضح أنه اتجه فيه نحو الغرب مباشرة، والتقى الاثنان إبراهيم ولوط في البرية، قال تعالى:

﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١].

ولم يدخل إبراهيم المدن الفلسطينية في أول هجرته، ولم يمر لا شمالاً ولا جنوباً، بل اتجه صوب الغرب بعد نجاته، هرباً من قومه الذين:

---

(١) تفسير التحرير، ج ١٧ ص ١١١.

﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: ٩٧].

إنه لم يدخل المدن أو القرى الفلسطينية، لأنه هرب من الوثنيين الذين ظل يدعوهم شاباً يافعاً، فلما يئس منهم، فعل فعلته تلك بآلهتهم، ولم يكرر في شبابه الاصطدام مرة أخرى بالقوى الوثنية في المنطقة، وإنما سيهيىء جيلاً جديداً يتولى حمل الرسالة من بعده.

آزر ـ تارح

وأخيراً، فإنَّ القرآن الكريم يقول: ﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤].

ويذهب التفسير في هذا مذاهب شتى[1]، وما يهمنا هنا هو أن القرآن الكريم واضح في التسمية «آزر»، أما «تارح»، فقد جاء بتأثير من التوراة التي حشت مادتها بالأضاليل والأقاويل، ذلك أن تارح، كما يذكر سهيل ديب:

«أبي إبراهيم الخليل، في ملاحم أغاريت، «وإن قدماء الكنعانيين في أوغاريت جهزوا حملة عظيمة لصد الغزو العبري الذي كان بقيادة زوجة تارح أبي إبراهيم»، بينما مدرسة أخرى لا تجد أي أثر لتارح في نفس اللوحات، وتعتبر أن الأمر لا يعدو خطأً بالترجمة، وإن عبارة (ت ر ح) الواردة إلى جانب كلمة (زوجة) لا تعني «زوجة تارح»، بل تعني «الزوجة الترح»، أي المشتراة لقاء مهر.

أضف إلى ذلك أن بين «تارح» التوراة و «تارح» أوغاريت المزعوم

---

(١) العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، ص ص ٢٠٨ ــ ٢١٠.

أكثر من ستة قرون من الزمن، حسب تأريخ أوغاريت المتعارف عليه.

كذلك نجد بين العلماء الذين انكبوا على دراسة لوحات أوغاريت من يفسر الملحمة المسماة «أسطورة كارت ملك الصيدونين» على أنها حملة حربية كبيرة ضد الغزاة العبرانيين في جنوب البلاد، فلسطين، أي أنها ذات صلة وثيقة بالتوراة، بينما علماء آخرون يفسرون هذه «الملحمة» بأنها مجرد حملة لاختطاف عروس للملك كارت الذي ماتت زوجاته السبعة الواحدة تلو الأخرى كما هو مذكور في مطلع القصيدة»[1].

أما إعادة مقولة التوراة: إن إبراهيم تحرك في جند وقوة، فهو ما لم يشر إليه القرآن الكريم؛ فلم يكن إبراهيم عسكرياً قط، وما ذكر القرآن الكريم أنه كان داعية حرب، وإنما كان رجل سلام مطلق: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠].

وكيف يجيز أي كاتب، مهما كان مستوى إدراكه، أن يردد حكاية اصطدام إبراهيم عليه السلام بجيوش قوم جبارين في الأرض، فيهزمهم وحده، ويتغلب عليهم جميعاً بذلك العدد من أهله وأتباعه؟

إبراهيم وملكي صادق

يأتي حسن ظاظا، فيقول في تقديمه لكتاب سيد فرج راشد: (القدس عربية إسلامية): «أن سيدنا إبراهيم عندما مر

(١) التوراة بين الوثنية والتوحيد، ص ١٠٢.

بمدينة شالم عائداً من بعض وقائعه الحربية صلى الجماعة مع ملكي صادق لله العلي»[1].

وبتأثير من أخبار التوراة نجد سيد فرج يقول عن المسجد الأقصى: **«هذه البقعة الطاهرة صلى فيها سيدنا إبراهيم مع ملكي صادق الذي كان أميراً دينياً من أصل فلسطيني للمدينة، وهذه القصة هي أصل نسبة المسجد الأقصى إلى سيدنا إبراهيم لأنه سجد فيه وهو بقعة مطهرة لله العلي، أي قبل الوجود اليهودي بحوالي سبعمائة سنة»[2].**

وقد دفعت الحماسة، وحب الدفاع عن الذات (العرب!)، العقاد إلى نسبة كل شيء إلى العرب؛ فالساميون، كما قال هو وغيره، عرب جاؤوا من الجزيرة العربية، والتديّن نفسه عربي، ومن الزعماء الدينيين العرب، ملكي صادق، الذي يقول عنه:

«تحول إبراهيم... إلى أرض كنعان.. (و) تلقى البركة من ملكي صادق».. وكان كاهناً لله العلي، وباركه.. «... وقد أعطاه إبراهيم العشر من كل شيء قرباناً إلى الله»[3].

ثم يقول:

«التوراة والإنجيل معاً يصفان الكاهن الكنعاني بصفة الرئاسة

---

(١) القدس عربية إسلامية، ص ٣٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الثقافة العربية، ص ٨٧.

الدينية وصفة الخلود الذي لا يحده الزمان، ويرفعانه إلى المنزلة التي يتلقى منها إبراهيم بركة الإلٰه العلي: إلٰه السموات والأرض ولا يكون ذلك لإنسان تعلم من إبراهيم ديناً لم يكن يعرفه، وإنما يكون لأستاذ متقدم في العلم بدينه يتعلم منه إبراهيم»[١].

وهكذا يقول سيد فرج عن القدس:

«ومعرفة الله فيها بالوثائق ترجع على الأقل إلى ملكي صادق الذي كان كاهناً لله تعالى قبل موسى بحوالي خمسمائة عام»[٢].

ومثل هذا قد يُفهم من قول أحمد محمد رمضان:

«اسم إيل الذي كان شائعاً لدى الأقوام الأخرى (مثل الفينيقيين والكنعانيين في ذلك الوقت) وبعضها لم يكن وثنياً، وكان فيهم أنبياء مثل ملكي صادق (ملك الصدق)»[٣].

رد وتعليق

يؤدي الحديث عن ملكي صادق بتلك الطريقة، إلى أن نستنتج أن ملكي صادق كان موحداً قبل إبراهيم، أو في السياق معه، وهذا أمر لا صحة له، ولا أساس؛ فقد كانت المنطقة وثنية كلها، وكان ملكي صادق هذا، على افتراض وجوده، كاهناً

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨٨.

(٢) القدس عربية إسلامية، ص ٥٦، وانظر ص ٥٩.

(٣) إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر، ص ٧٠.

لمعبد وثني في القدس، ولا صحة لاتصاله بإبراهيم، إلا من تلفيقات السيرة التوراتية وأوهامها.

وتبياناً لحقيقة ملكي صادق التوراتي هذا، أو لتفنيد وجوده، على الرغم من تأكيدات من مضى بذكره والتعريف به، نورد هنا رأي سهيل ديب في تناول غموض هذه الشخصية، فيقول في تفصيل مطول:

«كان ملكي صادق ذا مركز رفيع إن في العهد القديم أو الجديد، يليق بكل من أدوناي والسيد المسيح.

لكن ملكي صادق هذا، هل كان موجوداً حقاً، أم هو شخص أسطوري شأنه شأن الكثير من أبطال العهد القديم، أو هو مجرد خطأ بالترجمة؟

وأول ما يلفتنا في أمر ملكي صادق كونه بدون أصل أو نسب، على خلاف باقي أبطال العهد القديم، وأحسن ما قيل فيه هو كلام بولس نفسه: «الذي تفسير اسمه أولاً ملك البر ثم ملك شليم أي ملك السلام. الذي ليس له أب ولا أم ولا نسب ولا له بداءة أيام ولا نهاية حياة..»[1].

وهو يعالج ترجمة الاسم إلى اللغات الأخرى من اليونانية، فيقول:

«كلمة «ملكيصادق»، التي تكتب بالعبرية من مقطعين وليس مقطعاً واحداً: «ملك صدق»، إلى اليوم ولعل الكلمتين التصقتا مع بعضهما في النص الذي جرت الترجمة السبعينية منه فأشكل الأمر على المترجم اليوناني، وعوضاً عن ترجمتها «الملك الصادق الملك المسالم (أو ملك السلم)» كما ترجمها ترغوم يوناثان إلى اللغة الآرامية من الأصل الذي يقول

---

(١) التوراة بين الوثنية والتوحيد، ص ٣٥.

«ملك صدق ملك شلم»، فقد ترجمها إلى «ملكيصادق ملك شليم»، مما جعل المتأخرين من المترجمين والعلماء التوراتيين يعتقدون أن «شليم» هي أورشليم، أي القدس، وإن الملك هذا هو ملك «أورشليم». لكن الواقع هو أنه لم تكن هناك أية مدينة اسمها أورشليم» في عهد إبراهيم الخليل حيث أتى ذكر ملكيصادق لأول مرة، أما المزمور ١٠٩ ك (١١٠ ب) المنسوب إلى داود، فإن تفسيره «صعب» حسب الموسوعة اليهودية التي لا تسترسل بالمحاولة، ومدينة «أورشليم» سميت هكذا ولأول مرة، على ما نعلم، في الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، التي جرى تأليفها، بشبه إجماع من العلماء واليهود منهم بصورة خاصة، في القرن السادس قبل الميلاد أثناء السبي»[١].

والترجمة الصحيحة عنده هي: بعد أن يستقيم النص (وفق الترجمة الآرامية المعروفة باسم «ترغوم يوناثان»).

«وأخرج الملك العادل الملك المسالم (وهو الملك بارع ملك سدوم انظر تكوين ١٤ : ٢) خبزاً وخمراً بصفته كاهناً لله العلي» (تكوين ١٤ : ١٨).

«أقسم الرب (يهوه) ولن يندم إن أنت ملك عادل (على الكون)»، (مزمور ١٠٩ ك/ ١١٠ ب: ٤).

كما يصبح نص رسالة بولس إلى العبرانيين: «يقول له في موضع آخر أنت كاهن على الكون وملك عادل» (رسالة بولس إلى العبرانيين ٥ : ٦)، الخ..»[٢].

ويعلق بعد ذلك على هذه الاختلافات قائلاً:

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠.

«وفي العصور الأولى من المسيحية، كتب الكثير من رجال الدين من اليهود عدداً كبيراً من التعليقات والشروح التوراتية والتلمودية المعروفة باسم «مدراش» عن ملكيصادق، محاولين إيجاد مخرج أو تفسير لهذه الشخصية الغامضة، مما يجعلنا نعتقد أن الخطأ لم يكن فقط في الترجمة بل في كتابة النص العبري الأساسي إذ التصقت الكلمتان وأصبحتا اسما لشخص مجهول، وهذه التعليقات بالغة في التناقض والخيال إلى درجة إهمالها لأنها تعقِّد الموضوع ولا تفسره.

أما كيف يمكن أن يمر خطأ كهذا ويبقى أكثر من ألفي سنة، ودون أن ينتبه له أو يصححه أحد، فيمكننا القول على سبيل تفسير ذلك وليس تبريره أنه ليس الخطأ الوحيد الذي دام وقهر الزمن دون إصلاح في التوراة»[1].

إسماعيل

ويقول سوسة عن إسماعيل:

«وقد رُزق إبراهيم ابنا من الجارية المصرية هاجر أسماه إسماعيل، ثم ولدت له زوجته سارة ابنا في شيخوخته وسماه إسحاق. وتذكر التوراة أنه رزق في أخريات أيامه أولاداً أيضاً من زوجته الأخيرة «قطورة». ومات وعمره مئة وتسعون سنة ودفنه إسحاق وإسماعيل في حبرون في نفس المقبرة التي دفنت فيها امرأته سارة»[2].

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) العرب واليهود، ص٤٣٧.

رد وتعليـق

علينا كي نتدبر الوضع الحقيقي لسيرة إبراهيم عليه السلام أن ننظر فيما جاء في القرآن الكريم، فعنه يقول تعالى:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١ ـ ٧١].

ويكشف التأمل في هذه الآيات عن السيرة الحقيقية لإبراهيم، وهي:

١ ـ أن إبراهيم عليه السلام بلغ مرحلة الرشد في سن مبكرة جداً من حياته، ويدل على هذا أن قومه استخدموا له صفة من صفات الشباب المبكر، وهي اللعب: ﴿مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

٢ ـ أنه، وهو، الذي وصفه القرآن الكريم بالحليم، يتصرف بتسرُّع وصراحة مؤكدة:

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧].

٣ ـ أن القرآن الكريم نص هنا على أن إبراهيم: ﴿فَتًى﴾.

٤ ـ أن الله سبحانه وتعالى أنقذ إبراهيم من قومه، عندما نجاه إلى فلسطين. أي إنه خرج وحده، خِفية من موطنه.

ويواصل القرآن الكريم عرض قصة إبراهيم حتى نهايتها، فيقول تعالى، بعد أن تكررت الصورة السابقة التي مرت بنا عن دعوته في موطنه، في (سورة الصافات، الآيات: ٨٥ ـ ٩٨):

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ [الصافات: ٩٩ ـ ١١٢].

وتبين هذه القصة، دون التباس أو غموض، أن الولد البكر لإبراهيم عليه السلام هو إسماعيل، وهو الذبيح، وأن العقب التالي له هو إسحاق.

ولا يتحدث القرآن الكريم عن غير إسماعيل وإسحاق ابنين لإبراهيم، وإنما يذكر فيما يخص إسماعيل دعاء إبراهيم:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وفيما يخص إسماعيل وإسحاق:

﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ [الصافات: ١١٣].

وهذا يثبت لنا أن إبراهيم عليه السلام تزوج شاباً في الأرض المباركة، فلسطين، أي إن زوجه (سارة) ليست من قومه، أبناء موطنه الأول، وإنما هي من أرض كنعان، وكذلك إسماعيل من زوجه الثانية (هاجر «المصرية»).

وفي تعليق للأستاذ الدكتور نعمان السامرائي، أفادني به، قال: «التوراة تذكر الأبناء والبنات والنساء، أما القرآن الكريم، فلا يذكر سوى بعض الأنبياء وبعض الشخصيات التي لها دور في الهداية أو الضلال؛ لذا ليس شرطاً أن يذكر أسماء أبناء إبراهيم، إن لم يكونوا أنبياء».

وقد جاء ذكر إسماعيل سابقاً لإسحاق في غير موضع من القرآن الكريم قال تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩].

ومما هو جدير بالتنبيه ما ذكره سعفان، على طريقة الكتاب العرب المحدثين:

«إن إسحاق... سبقه إسماعيل... الذي شب وأينع قبل

أن تبرأ (سارة) من عقمها، بسبب غيرتها من هاجر، كما يرى علماء النفس»[1].

ولا محل لهذا القول هنا أبداً، فعامل التأثير النفسي محتمل في من له قابلية الولادة والإنجاب، أما امرأة شيخة عجوز، انقطع الطمث منها، وفاتها الرجاء، فإن هذا ليس موقعه هنا، وإنما هنا تتدخل الإرادة الإلهية والقدرة الربانية.

أبناء إسرائيل

يقول سوسة:

«إن أبناء إسرائيل الإثني عشر ولدوا كلهم..... في فدان آرام (منطقة حران)، حيث مكث أبوهم يعقوب المسمى بإسرائيل»[2].

ويذكر أحمد على المجذوب نقلاً عن التوراة:

«أن الابن البكر لإسحاق وهو عيسو توءم يعقوب...»[3].

بل يعقب، فيقول:

«لا شك أيضاً أنه كان لموقف أبيه منه وتفضيله ليعقوب

---

(١) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ٥١.

(٢) العرب واليهود، ص ٤٠٩.

(٣) المستوطنات اليهودية على عهد الرسول ﷺ، ص ٣١.

عليه، حيث اختصه ببركته دونه.....»[1].

ويمضي فيقول:

«ولكن يبدو من عدم وجود علاقات بين أبناء يعقوب وكل من أبناء عمهم عيسو وعم أبيهم إسماعيل، أنهم كانوا يعانون من إحساس كاذب بالتميز عليهم جميعاً، على الرغم من أن أبناء عيسو ــ على حد ما ذكرته التوراة ــ صاروا ملوكاً وأثرياء، وذلك خلاف ما حدث لأبناء يعقوب الذين عانوا الكثير، وهو ما يمكن أن يكون سبباً في حقدهم على بني عمومتهم، ولعلنا نذكر حقدهم وغيرتهم من أخيهم يوسف عليه السلام وتآمرهم عليه، فمن باب أولى أبناء عمهم وعم أبيهم»[2].

رد وتعليق

ومن أجل توضيح هذه المسألة، نذكر أن ميلاد أبناء إسرائيل (يعقوب) لم يكن في حران، وإنما في البرية، خارج مناطق الاستيطان المأهولة بالسكان كحران، قال تعالى على لسان يوسف بن يعقوب:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٢.

(٢) المرجع نفسه.

يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ١٠٠].

فهم سكنوا البادية، ولم يسكنوا الحاضرة، كما ذكرنا سالفاً.

وميلاد إسحاق، كما هو حال ميلاد يعقوب، كان في البادية، قال تعالى:

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

وقال تعالى:

﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٢ ـ ١١٣].

وقال تعالى:

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩].

فليس لإسحاق ابن سوى يعقوب، وقطعاً لو كان لإسحاق ابن هو عيسى (عيسو)، لذكره القرآن الكريم: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

أما وقد سكت القرآن عن هذا، فهذا يعني أنه لم يوجد شخص يدعي عيسو، وأن عيسو هذا هو من اختراع التوراة، لتوجد جماعة تنزل بها غضبها أو احتقارها. أما تفضيل يوسف،

فهو موقف إنساني عام في حب الطفل الصغير، سيما وقد بدت عليه علامات يعلمها يعقوب. وحبذا لو توخينا الدقة في التعبير ونحن نصف أبناء الأنبياء، وقد فعل يعقوب هذا عندما قال مرتين:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: ١٨، ٨٣].

وقولـه:

﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

يوسف عليه السلام

مكان مولد يوسف عليه السلام

إن القرآن الكريم يذكر في سورة يوسف:

﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

وعلى هذا يكون عدد إخوة يوسف أحد عشر ولداً، ويوسف تمام الثاني عشر فيهم. وهم ولدوا جميعاً في صحراء جنوب فلسطين (برية شور على الأرجح)، وليس في منطقة حرّان

حالياً، أو حران في أعلى بلاد الشام.

وإذا كان الكلام الذي مر بنا جارحاً جداً، وقاسياً جداً، فليس هو أقسى وأكثر إيلاماً من قول **محمود نعناعة**:

«يذهب سفر التكوين... في تعليل كراهية إخوة يوسف أخاهم.. (إلى) أن يوسف رأى في المنام الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً له ساجدين، فانتهره أبوه وقال ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته. وأما أبوه فحفظ الأمر»[1].

وليس هذا قول سفر التكوين، فقد جاء بمعنى مقارب لما جاء به القرآن الكريم، كما في الآية السابقة، وبعدها قال تعالى:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾ [يوسف: ٥].

وكان الأولى تحقيق ذلك من القرآن الكريم، لا نسبته إلى التوراة، والإيحاء بعدم صدقه.

النزوح والحكم

يقول سوسة:

«إن جماعة يعقوب المسماة ببني إسرائيل غادرت أرض

---

(١) المشكلة اليهودية، ص ١٣٢.

وطنها الأصلي «حاران» (حران حالياً) وأرض غربتها (فلسطين) في حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد إلى مصر، وهناك تزوج يوسف من ابنة رئيس الكهنة في مصر»[1].

«إن يوسف كان بحكم منصبه مندمجاً بالشعب المصري وخاصة بعد أن تزوج من (أسنات) بنت «فوطي فارع».

وولدت له ابنيه منسي وأفرايم في مصر منها. وهل أكثر من هذا الاختلاط بالشعب المصري في بداية هذه الفترة؟ وهل يعد ابنا يوسف (منسي وأفرايم) من نسل يعقوب مائة بالمائة؟. وهل كان ما يمنع زواج منسي وأفرايم من مصريات أيضاً مثل أبيهما بحكم انتساب أمهما إلى الكاهن المصري الأعلى؟.. ثم هل كان ما يمنع أبناء إخوة يوسف أن يتزوجوا من مصريات أيضاً اقتداء بعمِّهم يوسف؟.. نحن لا نستطيع أن نتصور في ضوء التحليل العلمي أن تكون أسرة واحدة (لا عشيرة) تتكون من سبعين شخصاً على قول التوراة قد هاجرت إلى بلد غريب وبقيت زهاء خمسمائة عام في هذا البلد من غير أن تنصهر وتذوب في محيطها الجديد ثقافياً واجتماعياً وحتى عرقياً. ويجب أن لا ننسى أن قبائل الهكسوس الحاكمة التي عاش يوسف وإخوته في كنفها، أن هذه القبائل ذاتها أخذت باللغة المصرية وبثقافتها كما هو معلوم وصار أتباعها في آخر عهدهم مندمجين بالمحيط المصري حتى أخذوا يتسمون

---

(١) العرب واليهود، ص ٤١٣.

بأسماء مصرية كما أخذ ملوكهم يقلدون الفراعنة في سيرة حياتهم، مع أنهم لم يبقوا في مصر أكثر من قرنين من الزمن»[1].

ثم يمضي في رؤيته تلك، قائلاً:

«ومما ساعد على ذوبان ذرية يوسف وإخوته بالشعب المصري كلياً هو الحادث الثاني، ونعني به اعتناق أخناتون فرعون مصر (١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ ق.م)، بعد عهد يوسف وعهد الهكسوس، دين التوحيد وفرض هذا الدين على الشعب المصري، إذ دخلت أثر ذلك جمهرة من المصريين ومعهم حاشية الملك والطبقة الحاكمة في ديانة التوحيد جرياً على العادة المألوفة (الناس على دين ملوكهم) والظاهر أن أخناتون كان ينوي تعميم هذا الدين على جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية في ذلك الزمن والأرجح أن أخناتون أخذ بديانة التوحيد متأثراً بعهد الهكسوس وعهد يوسف ويعقوب مما أدّى إلى اندماج ذرية إسرائيل بالمصريين بعد أن أخذ عدد كبير من المصريين بدين التوحيد، إذ لم يبق ما يفرّق بينهم وبين المصريين الذين اعتنقوا ديانة التوحيد، لأن الدين كان أقوى رابطة بين الأقوام في تلك الأزمان وبه يتميز الناس بعضهم عن بعض. وفضلاً عن ذلك فإذا اعتبرنا أن بني إسرائيل (ذرية يوسف وإخوته) كانوا مرتبطين بالهكسوس في خلال حكمهم في مصر، فلا بد أن يكونوا قد خرجوا مع

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

الهكسوس عند إخراجهم من مصر، هذا إذا فرضنا أنهم لم يندمجوا بالمجتمع المصري»[1].

رد وتعليق

ليس في هذا الكلام مما يقره الإسلام شيء، فكل هذه أخبار منقولة عن التوراة. وقصة يوسف من أعظم القصص الديني في التضحية ومقاومة الغريزة البشرية الطاغية، الغريزة الجنسية: أيكون يوسف عليه السلام قد تزوج من ابنة رئيس الكهنة الوثنيين بعد كل تلك التضحيات؟

أما أن يكون أخناتون، فرعون مصر بعد عهد يوسف، قد اعتنق دين التوحيد فهذا لا دليل عليه، لأن المصريين ظلوا في غالبيتهم وثنيين في عهده وبعد عهده، وظل بنو إسرائيل يشكّلون قومية خاصة.

قال تعالى على لسان الرجل المؤمن في عهد موسى عليه السلام:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [غافر: ٣٠].

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

فالمصريون الذين كان الرجل المؤمن منهم، كانوا وثنيين: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ [غافر: ٢٨].

أي إن الإيمان بالله، أي التوحيد، فكرة كان إعلانها يستحق الموت في أي وقت. ولذلك كان أي مصري يؤمن بالله، موحِّداً، يضطر إلى إخفاء إيمانه خشية الموت وغضب الفرعون عليه، في عصر فرعون موسى؛ قال تعالى، مبيناً القمع السياسي والديني للفراعنة: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ ﴾ [يونس: ٨٣].

وهذا يعني من جانب آخر أن الذين كانوا يجاهرون بدينهم ــ نُبُوَّة يعقوب (إسرائيل) ــ هم بنو إسرائيل، أي إن المصريين لم يندمجوا في بني إسرائيل، ولم يندمج بنو إسرائيل فيهم.

وسوف نناقش فكرة التوحيد عند أخناتون في موضعها من هذا الكتاب.

الأسطورة والتاريخ

لا يكفي سوسة هذا الهذيان واللغو في أمور دينية تستند إلى معارف تاريخية، ليس من السهل دمغها وتكذيبها، أو تفسيرها التفسير الذي يلائم الأهواء، ويخدر العقول، بل يتجرأ ـ كعادته ـ إلى التنقيب في الخرافات والأساطير، ليلصق بها التاريخ والمعتقدات. يقول عن سيرة يوسف:

«قصة يوسف مع امرأة سيدِهِ ومثيلتها في النصوص القديمة

وقد عثر في مصر على نصوص لأسطورة فرعونية قديمة تُسَمّى قصة الأخوين تشبه من أوجه عديدة قصة يوسف مع امرأة سيده فوطيفار المصري. وهذه مكتوبة على ورقة من البردى نشرتها مجلة كل شيء والدنيا المصرية. وخلاصتها أنه كان لأنوبيس امرأة حسناء راودت أخاه «باتا» ولكن باتا هذا أبى أن يذعن لإرادتها حتى إذا ما رجع إليها زوجها من حقله قالت له: «إن أخاك الأصغر دعاني لمضاجعته وتمنّعتُ عليه فلم أعد أطيق رؤيته... هلا يستحق منك القتل؟ ولما بلغ (باتا) أن أخاه يبغي قتله لاذ بالفرار واستنجد بالآلهة لتبين الظالم من المظلوم. وبعد روايات كثيرة لا تتصل بالموضوع خلف «باتا» فرعون وصار ملك مصر العظيم ودخل في مصاف الآلهة»[1].

فهل وُضِع كتاب سوسة: «العرب واليهود»، لينسف

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٦٥.

المعتقدات الإسلامية أولاً؟ أم أنه من الغفلة والحمق بحيث لا يرى أمامه إلا هذا القش المتراكم، فيحسب الظمآن أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن كل سراب بقيعة ماء؟ إنك لو فتّشت عن أساطير العالم ومروياتهم الشفوية، أو حتى المنقوشة، لوجدت من العجائب والغرائب ما يجعلك تظن أن الأقوام كلها تعيش في تفكير واحد، ويمكنك أن تَنْسُب يومياتك الحاضرة إلى الأزمنة الغابرة، ولكن المعتقدات الدينية السماوية، تلك المعتقدات التي حدثنا عنها القرآن الكريم إيجازاً أو تفصيلاً، لها خصوصية خاصة، وموضوعية فريدة، وعلاقات ذات روابط تقع خارج العقل الباطن للبشرية، أو التاريخ الوجداني للإنسانية.

سجن يوسف عليه السلام

وإذا كان ذلك الهذر غير مقبول، ومرفوض تماماً من أية دراسة لا تجعل القرآن الكريم المصدر الأول لتاريخ الأديان السماوية، فإن الصدمة يزداد تأثيرها عندما نسمع من يقول:

«أما سجن يوسف من قبل الهكسوس فإنه لم يكن لإلحاق الضرر به أو الظلم له، وإنما كان درءاً للسوء بسبب افتتان النساء به لجماله وعنفوان فتوته عليه السلام»[1].

ثم هو يستشهد بالقرآن الكريم ــ واأسفاه ــ فيقول:

وقد أشار ربنا تبارك وتعالى إلى ذلك بقوله:

---

(١) حقيقة اليهود، ص ١٠١.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾[1] [يوسف: ٣٥].

ويعقب بعد هذا، دونما أي دليل، فيقول:

«ومن سياق قصة يوسف في القرآن يبدو جلياً أنه كان موضع حفاوة الهكسوس المصريين حتى وهو في السجن، فلم تنقطع الصلة بينه وبين المجتمع الهكسوسي المصري، ومن ذلك أننا نجده يخرج من السجن ليتبوأ مركزاً عالياً لا يعلوه إلا مركز الملك نفسه»[2].

رد وتعليق

إن سجن يوسف كان ظلماً فادحاً، وخطراً على النفس البشرية، وهدماً لكل القيم والحقوق. فالسجين متهم بلا ذنب، مع اعتراف خصومه ببراءته في لحظة الجريمة ومكانها. إنه نموذج للظلم البشري خارج العدالة الإلهية والرحمة بين الناس، وخضوعاً لسيطرة البغي والشر على العدالة والقانون.

أما الحاكم وحاشيته، والمصريون أجمعون، فكانوا قد نسوا المظلوم في غياهب السجن، فانقطعت عنه أخبارهم، ولم يعد له وجود بينهم. ولولا الحكمة الإلهية في استدعائه، لقضى

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٠٢.

(٢) المرجع نفسه.

حياته سجيناً، وصار في عداد أولئك الأبرياء الذي ماتوا شهداء للموقف والمبدأ والعقيدة.

الأسباط الاثنا عشر

لقد كان لقصة يوسف عليه السلام وإخوته هدف إلهي سام تقصر المدارك البشرية عن إدراك كنهه ومراميه، وهي قصة مؤلمة إنسانياً، فيها مواعظ وذكرى للعلاقات البشرية القائمة على التحاسد والتباغض والاستئثار، ما تخلى الإنسان عن علاقته بربه واعتماده عليه. إنها تعكس نقصاً بشرياً خالداً في جِبِلّة الإنسان وتكوينه، ما لم يصل إلى تهذيب نفسه، وترويضها بالعقل والحكمة والاتزان مستنيراً بهداية الله وتوفيقه.

ومع أن القرآن الكريم قص قصة يوسف مع إخوته، فإنه عاد بهم مع أبيهم يعقوب (إسرائيل)، ليعيشوا في مصر، فيكونوا دعاة مصلحين صالحين، يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣].

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

ويقول سبحانه:

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقال عز من قائل:

﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وقد وقع في هذا الجدل صابر طعيمة، حيث يقول:

«أخلاق العشرة الأول من بني إسرائيل الحقد والشر والإجرام والكذب والخداع فـ «ليس فيهم رجل فيه رائحة الإنسانية ولقد ورث أبناؤهم كل هذه الصفات»(١).

فهل هؤلاء «الإخوة الفاسدين» أو «الأبناء الفاسدين»، كما

---

(١) بنو إسرائيل بين نبأ القرآن وخبر العهد القديم، ص ١٤٧ ــ ١٦١.

وصفهم عبّود أيضاً في موضعين آخرين[1]، كانوا فاسدين قبل فعلتهم بأخيهم يوسف، أم ظلوا كذلك بعد ذلك؟ وكيف يكونون أسباطاً ممدوحين محمودين في القرآن الكريم؟ أليس وراء ذلك حكمة إلهية؟! ولِمَ هذا التعميم في كلام طعيمة؟ أو ليس من أبنائهم من كان على غير تلك الصفات؟ وأليس هؤلاء العشرة هم أسباط بني إسرائيل؟؟!!

ومن طريف ما كتبه الكتاب العرب المسلمون قول محمد عبد الرحمن عبد اللطيف:

«صورة الأسباط في القرآن صورة مشرقة جميلة ناصعة شأنها شأن صور الأنبياء والرسل بما يوافق مفهوم النبوة في الإسلام»[2].

ولكنه سرعان ما ينسى ما كتبه، فيقول:

«وتكاثر الأسباط في مصر وارتفع عددهم من ٧٠ نسمة إلى أن زاد على المليون حينما خرج بهم موسى عليه السلام بعد ذلك من مصر»[3].

ثم يقول عنهم أنفسهم:

«وتاريخهم في مصر مليء بالمؤامرات والثورات وإثارة القلاقل والفتن وبخاصة بعد أن انتهى حكم الهكسوس ودان

(١) اليهود واليهودية والإسلام، ص ١١٠.

(٢) وعد الله ليس لبني إسرائيل، ص ٥٤

(٣) المرجع نفسه.

الحكم لفراعنة مصر فوصل الأمر إلى البطش بهم....»[1].

وقد علق الأستاذ الدكتور نعمان السامرائي على ذلك العدد بقوله: «من أين هذه المعلومة، والتوراة ذكرت (٦٠٠) ألف فرد، ذكر ذلك ابن خلدون وأمثاله، بأن ذلك مستحيل».

وعلى هذا الأساس من التقسيم، قال جلّ وعلا:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٦٠].

وعلى الرغم من هذا الوضوح في تعريف أبناء يعقوب، وفي موقف القرآن الكريم منهم، فإن عبد الغني عبّود يقول:

«هذه هي حياة بني إسرائيل، كما تمثلت في حياة عشرة من أسباطهم (أصولهم) الاثني عشر: إجرام يجري في العروق مجرى الدم»..[2].

ويواصل كلامه، فيقول:

«وقد رأينا... أن الأسباط بقوا في مصر بعد يوسف، وأنهم تكاثروا... وبروح الشر التي ملأت الآباء العشرة.. عاش الأبناء، يتعالون، ويفسدون، حتى صار التخلص منهم ضرورة من

---

(١) المرجع نفسه، وانظر ص ص ٥٦ ـ ٥٧، ٦١ ـ ٦٢.

(٢) اليهود واليهودية والإسلام، ص ١١١.

ضرورات الأمن، لمصر وشعبها ــ في وقت كانت مصر فيه، تستعد لخوض حرب، من سلسلة حروبها الطويلة، التي فرضها عليها موقعها، وما حباها الله به من خيرات. وفي مثل هذه الظروف، يكون التخلص من (المفسدين)، الذين يمكن أن يكونوا (طابوراً خامساً)، ضرورة ملحة»[1].

وما أجمل تعليق الأستاذ الدكتور السامرائي على هذا حين قال: فإذا كانوا كذلك، فلِمَ لم يسمح لهم بمغادرة البلاد؟؟

ويبدو التناقض في التفسير من قوله، وقد اعترف بالأسباط الاثني عشر:

«وأبناء إسرائيل الاثنا عشر، هم هم الأسباط الاثنا عشر، الذين ينتمي إليهم كل الشعب اليهودي».

«ولقد كان عشرة من هؤلاء الأسباط، في منشأ حياتهم فاسدين، يملأ الشر قلوبهم.. وأما الاثنان الباقيان، فقد كانا على النقيض من ذلك تماماً. وربما عاد هذا (الشذوذ) في الاثنين، عن القاعدة العامة إلى أن واحداً منهما (يوسف)، كان نبياً، وإلى أن الثاني (بنيامين) كان لا يزال بعد طفلاً غضاً»[2].

ولكن الأستاذ الدكتور السامرائي يقول: بل الأسباط هم

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٠٨.

الأفخاذ الذين جاؤوا من بعدهم، فتركوا مصر مع موسى عليه السلام.

بنو إسرائيل

يتحدث سوسة حديثاً مسهباً مستفيضاً عن إبراهيم عليه السلام، ويقيم فكرة تقول بفصل مسمى بني إسرائيل عن اليهود أتباع موسى عليه السلام، وفي هذا يقول:

«لذلك يكون من سمي في التوراة بني إسرائيل من أتباع موسى النبي لا يمتون بأية صلة بمحيط الساميين العرب الذي عاشه إبراهيم الخليل وحفيده يعقوب قبل مئات من السنين، كما أنهم لا يمتون بأية صلة بِذُرّية إسماعيل وإسحاق الذين بقوا محافظين على الدم السامي العربي الخالص الذي يرجع إلى عهد إبراهيم الخليل»(1).

ويمضي سوسة في تحليله لفكرته، فيقول:

«وصفوة القول أن عصر إبراهيم الخليل لم يكن له أي ارتباط بقوم موسى الذين سمتهم التوراة ببني إسرائيل للغرض الذي شرحناه وقد ظهروا بعد سبعمائة عام من دور إبراهيم الخليل، فهو عصر قائم بذاته ولا علاقة له بمن سموا ببني إسرائيل في عهد موسى لا في الثقافة ولا في اللغة ولا في العرق. فدور إبراهيم الخليل مرتبط كما نبّهنا إليه القرآن الكريم ببيت الله العتيق،

---

(1) العرب واليهود، ص ص ٤١٦ ــ ٤١٧.

أي بالجزيرة العربية التي هو منها وإليها يعود وهي وطن آبائه وأجداده الأصلي قبل هجرتهم إلى وادي الرافدين، فدوره يرتبط بتاريخ العرب مباشرة وهو العصر العربي القديم المعاصر للقبائل العربية التي هو منها والتي سميت بالعرب البائدة فيما بعد لانقراضها»[1].

وهو بعد ذلك يحمل حملة شعواء نكراء على ترديد الكتاب على اختلاف مذاهبهم مثل تلك الأفكار[2].

والغريب في الأمر أن سوسة الذي يُنكر بني إسرائيل في عصر موسى، يثبت أنهم كانوا كذلك في هذا العهد بالذات، يقول:

«وقد أخذت جماعة موسى بعد أن استقرت في فلسطين بالحضارة الكنعانية وتقاليدها وعاداتها كما أخذت بلغتها الكنعانية، لذلك نجد التوراة عندما تتحدث عن لغة هذه الجماعة التي تُسمي نفسها بني إسرائيل في حين أنها أبعد ما تكون عن بني إسرائيل الذين عاشوا قبل حوالي ستمائة عام»[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤١٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٤٥١ ــ ٤٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧١. يريد أن يقول: استقر اليهود في فلسطين بعد خروجهم من مصر، وبعد مئات القرون، كتبوا التوراة، فنسبوا أنفسهم إلى بني إسرائيل الذين خرجوا من مصر. أي أنه يثبت أن الأولين كانوا هم بني إسرائيل!

رد وتعليـق

ها نحن نعود إلى زجّ المعلومات بعضها ببعض، وإدخال الافتراضات الواحدة في أثر الأخرى، والأخذ من هنا وهناك من أشتات الأخبار والآراء.

أما القرآن الكريم، وتعريفه لبني إسرائيل، فيأتي كالتالي:

قال تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٣].

فإسرائيل: لقب يعقوب عليه السلام؛ وأتباعه، قبل أن تنزل التوراة هم: بنو إسرائيل. ثم هم أولئك الذين قال فيهم سبحانه، على لسان موسى:

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

أي: هم القوم الذين لم يخرجوا بعد من مصر، ولم يصبحوا أتباعاً لموسى حتى الآن. وفي الخروج هم أيضاً بنو إسرائيل، يقول عز من قائل:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

أما بعد الخروج، فهم كذلك بنو إسرائيل، يقول جلّ شأنه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٢٤٦) ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ويقول الله تعالى فيهم، وأنهم هم بنو إسرائيل:

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) ﴾ [طه: ٨٠].

ومن الآيات في هذا قوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ [البقرة: ٨٣].

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) ﴾ [المائدة: ٧٠].

والجدير بالذكر أن القرآن الكريم لا يشجع على الأخذ بمصطلح «السامية» ولا حتى بمصطلح «العرب»، وإنما يجعل البشر كلهم من نسل آدم وحواء «أبويكم»، ثم كان التقارب الصوتي بين اللغات لأسباب لا يمكن الوصول إليها إلا بالفرض

والاحتمال، وهي مصطلحات لا صلة لها بالعرقية والقومية.

وفيما يتعلق ببني إسرائيل، فإن القرآن الكريم يثبت أن نسبهم يمتد إلى بعض ذرية من كان مع نوح نسباً متصلاً، وهو إشعار بهذه العناية الخاصة التي أولاها الله سبحانه لبني إسرائيل ــ وهو أمر لا مجال لإنكاره، سواء جادلنا أم شددنا الجدال. يقول تعالى:

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢ ــ ٣].

أي إن موسى عليه السلام هو أحد ذرية من كان مع نوح.

ومع ذلك، فإن القرآن الكريم يتوسع في شمول النسب الذي يربط إبراهيم عليه السلام بإسماعيل وإسرائيل (يعقوب بن إسحاق)، فيجمع بينهما، كما يذكر غيرهم من الأنبياء، كالتالي:

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [مريم: ٥٨].

هذا هو القرآن الكريم، الكتاب الذي لا ينطق عن الهوى، والمصدر الذي ينطق بالحقيقة غير الزائفة، أو المدخول فيها، أو المطعون عليها؛ يقص التاريخ كما وقع، وينقل الأمس كما كان، من غير تضليل ولا بهتان.

أما أن يكون بنو إسرائيل، كما نعرفهم في تاريخهم، فهذا

ليس شأننا، إنه شأن إلهي غيبي، لا نعلم أهدافه ومراميه، وقد بينا افتراض سبب من أسبابه في مقدمة الكتاب.

الشعب المختار

يقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الجاثية: ١٦].

إن فكرة الشعب المختار، ليست فكرة يهودية خالصة، فالله العلي القدير عندما قال:

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الجاثية: ١٦].

إنما يأتي بفكرة لم يبتدعوها هم بأنفسهم، وإنما فكرة أقرّها عليهم الإسلام، وأثبتها القرآن الكريم، أما تفسير هذا التفضيل، فهو عند المسلمين تفضيل ديني.

ويبقى النزاع في إبراهيم نفسه، هل كان يهودياً أم لا؟ لقد استشهد سوسة بقوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقال: **«إن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة»**[١].

---

(١) العرب واليهود، ص ٣١، وانظر أيضاً ص ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

حقاً، كشف القرآن الكريم أن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وأنه حنيفي مسلم. ولكنه لم يقل إنه عربي، وأن أتباع ابنه يعقوب، الذي يتحدث عنهم سوسة، ليسوا بني إسرائيل. ولهذا قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ [آل عمران: ٦٥].

إن بني إسرائيل هؤلاء حتى مجيء الإسلام، هم الذين جاء ذكرهم في الآية: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ [يونس: ٩٣].

ومن الأفضل للمرء أن ينأى بنفسه عن تعبير كالذي قال به الفاروقي:

«إن الاختيار الإبراهيمي لا مبرر ولا علة له. وكونه بدون سبب يجعل منه أساساً صالحاً لبناء العنصرية»[١].

يقول ابن الشريف، في إيضاح مفهوم التفضيل ذاك:

«ليس معناه تفضيلهم التكويني في خَلق أو خُلق أو علم أو ذكاء أو فراهة أجسام، أو نحو ذلك مما يزعمون، وبه على غيرهم يتطاولون».

ويمضي في تبيانه، فيقول:

هذا هو ما يمنن الله به على بني إسرائيل من التفضيل والإيثار، ولو

---

(١) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ٢٧، وانظر ص ٢٠.

كان الأمر كما يزعمون من تفضيل تكويني في خَلق أو خُلق لما كان القرآن إلا متعارضاً بعضه مع بعض، حيث يصفهم في كثير من المواضع باللؤم والنقض، ويلعنهم ويعبر عن طردهم من رحمة الله ورضوانه بأنه ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال لهم ﴿ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٦]، ويصف التواءهم العقلي بمثل قوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]. ويصوّر قسوة قلوبهم بصورة بليغة إذ يقول: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٧٤]، ويقول عنهم: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٨٦]، ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

ويخلص ابن الشريف إلى النتيجة التالية:

«ولو أن باحثاً جمع آيات القرآن الكريم عن اليهود، واستخلص منها ما تدل عليه من مثالبهم ومساوىء أخلاقهم وأفعالهم والتواء طبيعتهم لجمع ـ أو كاد ـ جميع خصال السوء، وأخلاق الرذيلة، فكيف يتبجحون مع هذا بأن القرآن يقصد امتيازهم على جميع من سواهم من الأمم؟! وكيف يستمسكون بما يفهمون من ظاهر آية أو آيتين، وقد تحالفت آيات القرآن التي نزلت فيهم على غير ما فهموا؟!

والخلاصة: أن القرآن حين قرر أنهم فضلوا على العالمين، وأنهم أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين، إنما ساق ذلك في معرض الامتنان عليهم بالنعم، وإثبات أنهم يجحدونها ويكفرون بها، فهو إلزام منطقي

بلـؤمهـم، حيـن أوثـروا وأوتـوا بـالنعـم فكفـروا، وتـولـوا، واستغنـى الله. . . !!»[1].

وإن التدقيق في مسألة التفضيل هذه يكشف عن أنه كان في حقيقته نقمة على بني إسرائيل، وليس نعمة مطلقة، ذلك أن الإنعام مقيد بالسلوك القويم تجاه الله وتجاه الناس، فإذا ما انحرفوا، حل بهم الويل والثبور. وأيُّ تفضيل لهم يتباهون به، وقد لبثوا في العذاب مئات السنين تحت نير الفراعنة، طبقةً دنيا حقيرةً مستخفًّا بهم؟ وأيُّ افتخار هذا، وقد تاهوا أربعين سنة في أرض جرداء قاحلة، وهم على مرمى من الأرض المباركة؟ وأيُّ اعتزاز بالتفوق، وهم أذلة صاغرون في كل زمان ومكان، إلا في فترات قصيرة من عمرهم؟

فهناك ميثاق ونقض ميثاق، وهناك تعذيب وعذاب!

ولعل مما يحسن التنبيه إليه هو أن مصطلح «بنو إسرائيل»، الذي كان خاصاً بجماعة قبلية معلومة من أبناء يعقوب عليه السلام، والذي حل محله بعد موسى عليه السلام في أحيان كثيرة مصطلـح «اليهـود»، لـم يـزل مـع مـرور الحقـب والأزمـان، فبنـو إسرائيل الذين اختلطت أعراقهم وأصولهم بغير هم، حتى أصبح هؤلاء يعودون بأنسابهم إلى إسرائيل، هم الذين يقول تعالى فيهم:

---

(١) الشعب الملعون في القرآن، ص ص ١٤ ــ ١٥.

﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ۝٨ ﴾ [الإسراء: ٥ ــ ٨].

الوعود الكاذبة

احتلت كتابات عبد الله التل مكانة توازي مكانة كتاب سوسة، وكثيراً ما عاد إليه الكُتَّابُ، يلتقطون من آرائه ما وافق هواهم، ويجتزئون منها ما ناسب مبتغاهم. وكتابه: «جذور البلاء»، كتاب يعنينا بعض الشيء هنا، ذلك أن القسم الأول منه بَحْث أعدّه الكاتب لنيل الدكتوراه من جامعة الأزهر. ومما جاء فيه، تحت عنوان، الوعود الكاذبة:

«يبدأ سيل الوعود في التوراة من أيام إبراهيم الخليل عليه السلام، يوم اجتاز الأرض إلى شكيم وكان يقطنها الكنعانيون. «وظهر الرب لأبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض..».

«رأى إله اليهود أن يحوِّل الميثاق إلى عهد من طرف واحد، لتحلل اليهود من الالتزامات التي تقيدهم وتنظِّم سلوكهم في الحياة. «فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهوذا

عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم. . . . وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً. . . ».

«ومن بعد إبراهيم عليه السلام انهالت الوعود على ابنه إسحاق». وظهر له الرب وقال لا تنزل إلى مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك تغرّب في هذه الأرض. فأكون معك وأباركك لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك. وأكثر نسلك كنجوم السماء. وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. ».

«ومن بعد إسحاق ابنه يعقوب الذي. . . قال (له الرب) أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض».

«. . . . ظهر الله ليعقوب وقال له: اسمك يعقوب. لا يُدعَى اسمُك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل. . . . والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحاق لك أعطيها. ولنسلك من بعدك أعطي الأرض».

«وانهالت الوعود فيما بعد على موسى عليه السلام».

« . . . . فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم

من أجل مسخِّريهم. إني علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة واسعة. تفيض لبنا وعسلا. . .»[1].

ويستمر التل في نقله من التوراة والطعن عليها، فيقول:

«إله اليهود هذا، وقْف عليهم لا يسمحون له أن يتصل بسواهم من الشعوب لهدايتها كما لا يسمحون لتلك الشعوب أن تتصل به لتتعرف إليه وتعبده. وبدأت عملية الاحتكار هذه من أيام موسى وفرعون». «فقال فرعون من هو الرب اسمع لقوله فأُطلِق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلعه. فقالا إله العبرانيين قد التقانا فنذهب بسفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف».

«فدخل موسى وهارون إلى فرعون وقالا له هكذا يقول الرب إله العبرانيين إلى متى تأبى أن تخضع لي. أطلق شعبي ليعبدوني»[2].

ويمضي التل في تعبيره، مبدلاً لفظة «الرب» و«إلهك»، إلى المعبود اليهودي الشائع «يهوه»، فيقول:

«ولم ينس يهوه وهو يحض شعبه المختار على التعصب والانعزال وعدم عقد العهود والمواثيق مع غير اليهود، لم ينس

---

(١) جذور البلاء، ج ١ ص ص ١٠ ــ ١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٤.

التهديد بفرض العقوبات الصارمة على من يخالف أوامره وتعاليمه». «ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التي أنا أوصيك بها اليوم تأتي عليك جميع اللعنات وتدركك. ملعوناً تكون...»[(١)].

وهكذا يقول:

«تعد التوراة أول كتاب في العالم يبيح قتل الأنبياء وأخذ الأبناء بجريرة الآباء. وتقرر التوراة العقوبات المشتركة التي يذهب ضحيتها الأطفال والشيوخ والنساء ممن لا ذنب لهم.... فها هو موسى التوراة يعاقب الذين اعترضوا عليه من بين قومه، ويدعو ربه ليخسف بهم الأرض مع نسائهم وأطفالهم...»[(٢)]..

ولا يفتأ التل مسهباً في تفنيد التوراة، فيقول:

«وداود التوراة كان طاغياً مستبداً، أستعبد اليهود وغير اليهود. فقد كان خدّامُه... واستمرأ الملك سليمان أنظمة العبودية التي خلفها أبوه داود وزاد عليها. واستغل سليمان أبناء الشعب الفلسطيني.... وحوّلهم إلى عبيد يبنون له الهيكل»[(٣)].

وقد بلغ التطرف في التعبير حدا يدعو للدهشة حقاً، يقول سعفان:

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٤.

(٣) جذور البلاء، ص ٥٢.

«ويصعد موسى الجبل، ويلتقي بربه، ويعود ببشارة أخرى: (الآن ــ إن سمعتم صوتي، وحفظتم عهدي ــ تكونون لي خاصة، من بين جميع الشعوب، فإن لي كل الأرض، وأنتم تكونون لي مملكة كهنة، وأمة مقدسة».

ثم يعلق على هذا:

«وما داموا قد أصبحوا بمثابة أبناء الله وخلفائه في الأرض، فلا بد من أن يحقق الله لهم ما وعدوه «أرض تفيض لبنا وعسلا».

لقد فجر الله على موسى اثنتي عشرة عيناً، بعدما استبد بهم العطش، وأغدق عليهم المن والسلوى، حين استحر بهم الجوع، أفلا يصدق هذه المرة أيضاً، فينصرهم على هؤلاء الجبابرة؟»[1].

رد وتعليـق

الوعود الصادقة

هذه شذرات مقتطفات مما يهمنا جداً في الجزء الأول من كتاب التل، «جذور البلاء»، والذي لا شك فيه أن التل رجل مخلص كل الإخلاص في مواقفه العدائية لليهود، وهكذا هو موقف الآخرين غيره. غير أن الدفاع والحماسة والشراسة في الهجـوم لا تجـدي نفعـاً، إذا لـم يصـاحبهـا التعقـل والحكمـة والاتزان، فنحن نقرأ ما يكتب، وما يكتب يتسرب، شئنا أم أبينا،

(١) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ٥٥.

إلى ذاكراتنا، ويتحول المقروء بمرور الزمن إلى لا وعي جماعي، يتحكم في تصرفاتنا وأقوالنا وممارساتنا وعلاقاتنا بالله أولاً، ومن بعده تأتي علاقاتنا بأنفسنا وبالآخرين.

وما دمنا نحتكم إلى القرآن، ونستعين بالسنة المطهرة، ونستدل على آرائنا بالعقل والضمير؛ لأن الكتابة مسؤولية، والمواقف مبادىء، فإن الواجب علينا أن نضع كل ذلك أمامنا. وعندما نعترض على مخاطبة الله تعالى لإبراهيم ووعده له بأن يسكنه الأرض المباركة، وأن يكثر نسله، وأن يباركه فيها، وحينما نرفض مباركة إسحاق ويعقوب وتسمية يعقوب (إسرائيل)، وإذا ما وصفنا تجلّي الله جل وعلا لموسى في سيناء بأنه «**انهالت الوعود فيما بعد على موسى...**»، بل نسخَر من غير أن ندرك من لقاء موسى بفرعون: «**وبدأت عملية الاحتكار هذه من أيام موسى وفرعون...**». وإذ يتراءى لنا أن ما جاء في التوراة عن موسى وهارون: «**فدخل موسى وهارن إلى فرعون...**» غريباً، ثم إذا ما تصورنا أن تهديد الله لبني إسرائيل بصب اللعنات عليهم يعني: «**التعصب والانعزال**»، وأخيراً إذا اتهمنا التوراة بالكذب، لأننا جعلنا من بناء (الهيكل) تسخيراً وعبودية، إذا، إذا، رددنا هذه الأقوال، فماذا نقول عما جاء موافقاً لها في القرآن الكريم. وليس في كل تلك الأقوال ما يخالف القرآن الكريم. وقد كانت هذه البقية الباقية من التوراة موافقة القرآن الكريم، حتى إننا

لم نجد فيما نقلناه من أقوال تسمية الله تعالى بـ «يهوه»، كما هو معتاد عندهم، بل وجدنا الرب/ إله..». وقد جاء مثله في القرآن الكريم:

﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ...﴾ [البقرة: ١٣٣].

إن المرء لا يتوقع إطلاقاً أن تأتي صياغة التوراة مقاربة لبيان القرآن الكريم، حتى إن في الاقتباسات السابقة من كتاب التلّ، غير تعبير مخالف للقرآن الكريم مثل: «**سقط أبراهم على وجهه...**»، «**فغطى موسى وجهه...**»، «**فها هو موسى التوراة يعاقب...**»، ولكن الأفكار فيهما واحدة: الوعد لإبراهيم، ولإسحاق، وليعقوب، ولموسى؛ تسخير الإنس والجن في خدمة سليمان لبناء المحاريب...، التهديد والوعيد لبني إسرائيل، إن خالفوا أمر الله... إلخ.

إذن، فما يشغلنا هو تحويل كل ما في التوراة إلى الكذب والزور، في حين أن فيها أشياء قلّت أو كثُرت، تتوافق كلياً مع القرآن الكريم، ليس في طريقة الإيصال، وإنما في المفهوم وفي الأفكار، وفي القضية.

ولذلك كان يتوجب الوعي بالخطوط العامة المشتركة فيما بين هذا كله، وتسليط الأضواء عليه، حتى لا ينجرّ المرء إلى الخلط، ثم الوقوع في المحذور.

وإذا كانت التوراة تثير الشفقة على المصريين، فإنها بالتأكيد لا تثير الشفقة على فرعون وجنده، ولو كان الشفقة والعطف يأتيان من مجرد الصورة، لاعترضنا على القرآن الكريم الذي جاء فيه إغراق فرعون وجنده، فلماذا يُغرق جندُه، ولا ذنب لهم، إنهم جند مسخّرون؛ ولكن هذه حكمة الله في فرعون، رمز الطغيان والجبروت في الأرض، أما جنده، فرمز الطاعة العمياء، وعدم الثورة والتمرد، والمطالبة بالعدالة الاجتماعية.

في التوراة المحرفة أكاذيب وأباطيل وشبهات وافتراءات، ولكن على المُسلم أن يتحرى الدقة في الاستشهاد، وعلى العالِم أن يكون منصفاً.

إننا لا ندري لماذا اختار الله جَلَّت قدرته، فلسطين ليهاجر إليها إبراهيم، ولماذا زحف موسى نحو أرض الميعاد، ولماذا سخّر الله الأنس والجن لسليمان يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، ففي تصورنا البشري القاصر، حسب مفهوم بعض الكتاب المحدثين يعد ذلك تعدياً على حقوق شعب سكن أرضه، فجاءه من جاءه، لينتشر فيه ويؤسس وجوده، تحت شعار: إرادة الله، وفي مداركنا المحدودة، يعُد أولئك الكتاب زحف موسى انتقالاً من عذاب إلى عذاب، وقسوة لا مبرر لها بأن يتيه الشعب الذي أراد الله إنقاذه في صحراء مهلكة محرقة، ولو بقي في مصر، لتساوى الأمران، كما ردد ذلك اليهود في احتجاجهم على موسى عليه السلام؛ ونحن البشر ـ بما أوتينا من

تفكير، لا يبلغ مداه إلا بمقدار ما نتلقنه ونُوصِله إلى الآخرين بعد جهد جهيد ــ نحس كما تصور هؤلاء أن عمل داود، وسليمان خاصة، سُخْرة واستعباد، وتبذير، وفساد؛ هذا هو ما يوصلنا إليه الظاهر من الأمور، ومع أنه حتى هذا الظاهر له أجوبة مقنعة مرضية، فإبراهيم هاجر ليؤسس ديناً إنسانياً، ويُعِد أمة، يعلم الله سبحانه وتعالى أنها لن تحتمل الرسالة طويلاً، وستخون الأمانة؛ وإرادة الله قصدت أن يخرج بنو إسرائيل من مصر بقيادة موسى وهارون، ليواصل خَلَفهما المسير إلى فلسطين، فتكون دولة داود وسليمان، نموذجاً للخير والرفاه وحب العمل والتفاني فيه؛ إنه مع كل ذلك وغيره، فإن المؤمن بالقرآن الكريم سيتقبل الظاهر، تاركاً باطنه لعلم الله.

وقد كان الجدير **بالتل** ــ رحمه الله ــ ألا يكون نموذجاً سيئاً لغيره من الآخذين عنه والمقتدين به. ولن نطيل المناقشة، ففي ثنايا كتابنا وأعطافه من اقتباسات القرآن الكريم الغناء كل الغناء.

أما ما ذكره **سعفان**، من اختصاص الله ببني إسرائيل ــ دون الأخذ بعبارة التوراة «**تكونون لي مملكة كهنة**» ــ ووعد الله لهم بالأرض التي تفيض المن والسلوى، فليس في حاجة إلى إثارة السؤال: «**أفلا يصدق الله هذه المرة....**»، لأن هذا الوعد كان:

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: ١٦٠].

ولقد جاء ذكر هذا الوعد بدخول فلسطين في القرآن الكريم، فقال تعالى، وهو في صدد الحديث عن الخروج، مؤكداً أن بني إسرائيل دخلوا فلسطين، وهو ما يُعرف في التاريخ بدخول بني إسرائيل فلسطين بقيادة يوشع بن نون:

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى في صياغة مشابهة:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: ٥٩].

والحق الذي لا ريب فيه هو أن هذه الوعود مرهونة بالتدين الصحيح، وهو ما لم يتبعه يهود أو يتقيدوا به، والحق أيضاً أن مجيء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قد أسقط كل حق لليهود في التمسك باليهودية صحيحة أو محرفة، كما أن مجيء الإسلام كان إسدالاً لستار تشتت الأديان وتعددها، وما اعتراف الإسلام باليهود أو بني إسرائيل إلا دعوة لهم للعودة إلى جادة الصواب واتّباع الرشد والهدى، الذي هو الإسلام.

الفصل الثالث

تناقض الاستدلال

موسى عليه السلام

الولادة

مضيّاً مع سوسة في حشوه لكل ما تقع عليه عيناه من آراء، سعياً وراء تفنيد مرويات التوراة، يأتي إلى سيرة النبي موسى عليه السلام، الذي يقول عنه:

«إن موسى نبي تعترف بنبوته الديانات الثلاث. . »[1].

ولكنه ينطلق مع تأويلاته، فيقول:

قصة ولادة موسى ومثيلتها في النصوص البابلية

هناك أسطورة بابلية مكتوبة بالخط المسماري عثر عليها في المنطقة الأكدية في جنوب العراق وهي تشبه قصة ولادة موسى ونشأته، والأسطورة منقولة عما رواه سرجون الأول ملك الأكديين (٢٣٨١ ــ ٢٣١٦ ق. م) عن نفسه من أن أمه كانت إحدى عذارى الهيكل ولا يعرف أباه فحملت منه ووضعته سراً، فخبأته في صندوق من البردي وأحكمت بابه بالقير وألقته في نهر الفرات. فعثر عليه «أكي» الفلاح فربّاه ليكون ابنه، ثم صار سرجون اللقيط

---

(١) العرب واليهود، ص ٤١٦.

بستانياً فساقياً للحاكم وقد عشقته الآلهة عشتار فصار ملك سومر وآكد»[1].

ويقول في الحاشية عن أسطورة سرجون:

«هذا ما جاء في كتاب سيتون لويد «الرافدين» (الترجمة العربية ص ٥١ ـ ٥٢) غير أن الأستاذ طه باقر قد أثار في تعليقه على ذلك أن النص الوارد في كتاب سيتون لويد يمثل رأياً قديماً وأن البحث الحديث يرى أن أم سرجون كانت كاهنة عليا من صنف الكاهنات المحرم عليهن الزواج أو على الأقل إنجاب الأطفال»[2].

ثم يواصل حديثه، فيقول:

«وقد تناول فرويد بحث أسطورة انتشال البطل من الماء بقوله: «إن أقدم من نعرفه من الأشخاص الذين ارتبطت بهم خرافة الولادة هذه هو سرجون الأكدي، مؤسس بابل حوالي عام ٢٨٠٠ ق. م وآلف الأسماء إلينا في السلسلة التي تبدأ مع سرجون الأكدي أسماء موسى وقورش ورومولوس، بيد أن رانك أمكنه في البحث الذي نشره بعنوان: «أسطورة ميلاد البطل» أن يجمع عدداً كبيراً من وجوه الأبطال الذين تتردد أسماؤهم في الأشعار أو في الأساطير والذين عاشوا طفولة متشابهة كلياً أو جزئياً... ووضع الطفل في سلة تمثيل رمزي صريح للولادة، إذ ترمز السلة إلى بطن الأم،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٦٦.

(٢) المرجع نفسه.

والماء إلى السائل السابيائي. والعلاقات بين الوالدين والأطفال تمثل، في عدد لا يحصى من الأحلام، في فصل الانتشال من الماء أو الانقاذ من الماء.. إن أصل هذه الأسطورة يهودي، فالخرافة خُلقت من قبل الشعب اليهودي، أي رُبطت، في صيغتها المعروفة، بشخص زعيم هذا الشعب... وهنا بالتحديد تتيح لنا وجهة نظرنا الإقرار بأن الأسرة الأولى، الأسرة التي هجرت الطفل، وهي بكل تأكيد خيالية، وبأن الأسرة الثانية، الأسرة التي تولت تربية الطفل، هي الحقيقة»[1].

ويحاول خياطة التوفيق بين المصدرين الأسطوري والنفسي، فيقول:

«يرى الأثريون في موسى شخصية مركبة منسوخة عن صرغون الأكادي الأول موحد للشرق العربي في الألف الثالث قبل الميلاد وحمورابي المشرّع البابلي الكبير في الألف الثاني قبل الميلاد، وقد نزع كّتاب اليهود صفات البيئة الرافدية عنهما لتكتسب صفات جديدة تتلاءم والبيئة المصرية التي تتحدث عنها التوراة»[2].

ولإيضاح هذه الرؤية بصراحة، نأخذ تحديد ظاظا لشخصية البطل، التي يحصرها في التالي:

(١) المرجع نفسه. وانظر ص ٤١٦ ــ ٤١٧.

(٢) قرأت في التوراة، ص ٤٣.

١ ــ أن يكون من أب غير معروف، أو أن يكون يتيماً، وأمثلة ذلك من أبطال الساميين الملك الأكادي سرجون الأول، وسيدنا موسى، والمسيح وسيدنا محمد ﷺ.

٢ ــ أن تكون ولادته محفوفة بالمشاكل والمخاطر، كأن يولد في وقت مذبحة، أو من أبوين طاعنين في السن جداً، أو من أمّ عاقر كانت لا تلد من قبل، والأمثلة لتلك الحالات موجودة في ولادة موسى نفسه، وشمشون الجبار، ونبي اليهود صمويل، ومن قبلهم إسحاق، ومن بعدهم سليمان، والمسيح.

٣ ــ أن يكون البطل ممن أحبوا العزلة في الصحارى والجبال، والاشتغال برعي الغنم، مماُيتيح له إطالة التأمل في تعاقب الليل والنهار، وما في الكون الكبير من عجائب ومعجزات، وهذا واضح في شخصية إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام».

أما شخصية البطل عند المصريين كما يحددها ظاظا فأهم عناصرها:

١ ــ أن يكون ربيب بيئة أرستقراطية، نشأ في القصور ونما وترعرع بين الملوك والأمراء.

٢ ــ أن يكون قوي البنية شديد البأس لا يهاب المعارك.

٣ ــ أن يعيش في الحضر بين قوم متمدنين منظمين»[١].

---

(١) الفكر الديني اليهودي، ص ٢١.

وها هو يعود بعد ذلك إلى الاستناد إلى فرويد، فيقول:

«وقد لاحظ فرويد أن موسى في قصته المعروفة يبدو لنا مزيجاً من العناصر السامية والمصرية جميعاً. فهو رغم ولادته من أب غير معروف، وفي وسط مذبحة رهيبة، قد نما ونشأ في بيت فرعون، وربّته ابنة فرعون نفسها وتبنّته. كذلك نجد العنصر المصري الخاص بالقوة البدنية وعدم التهيب من المعارك، يبدو في ضربه للرجل الذي وجده يؤذي واحداً من شيعته، ضربة واحدة قاضية، كما يبدو كذلك في دفعه الرعاة عن البئر ليسقي لابنتي كاهن مدين الضعيفتين، ثم إنه بالرغم مما يلاحظ من إقباله على الانفراد والتأمل في صحراء سيناء وبادية مدين أثناء قيامه برعي الغنم..»[1].

والعجب بعد ذلك أن نجد اختلالاً فادحاً في المنهج والاستقراء، فذا سعفان يحاجّ، فيقول:

«وقد اختلف المؤرخون في أصل موسى، هل هو مصري أو عبراني؟ وحجة من يدّعون أنه مصري كون اسمه مصرياً، بمعنى الطفل أو الابن، وأنه كان ذا مكانة بين الحاكمين، إذ كان ضابطاً في جيش مصر ضد الأحباش، كما يقول فرويد مستعيناً بما قال (فيلو) الفيلسوف اليهودي، ويوسيفوس المؤرخ اليهودي»[2].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١.

(٢) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١١.

ثم يدحض هذا الرأي، مستشهداً بالقرآن الكريم، فيقول:

«وهذا زعم باطل، لأن الاسم والمكانة يرجعان إلى تبني امرأة فرعون له، كما تقول عبارة القرآن الكريم، بعدما أمر فرعون بذبح مواليد اليهود من الذكور: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٧، ٨]، ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1] [القصص: ٩].

وبعد هذا، يأخذ في التخبط، فيقول:

«وبدون نظر إلى ما جاء في القرآن الكريم، فليس ما يمنع من التسمي بالأسماء المصرية، خلال خمسمائة عام، بحكم الوجود الاجتماعي الذي يتبادل العادات والتقاليد والثياب والأطعمة والأسماء والأهواء، أو بحكم التقية، والمعروف عن اليهود أنهم يلبسون ثياباً غير يهودية ليصلوا إلى مقاتل الأديان الأخرى، فكيف إذا أرادوا الوصول إلى المناصب القيادية؟[2]».

الخـروج

بعد ذلك الحديث المسترسل مع شطحات الخيال حول

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه. وقارن هذا برفض العقاد فرضية فرويد، طوالع البعثة المحمدية، ص ١٠٦.

ولادة موسى عليه السلام، نجد سوسة يقول عن خروج بني إسرائيل من مصر:

«أما حقيقة قصة الخروج فهي، كما يستدل من الأحداث التاريخية، أن جماعة من المصريين الذين كانوا قد أخذوا بديانة التوحيد في عهد أخناتون فرعون مصر، وأكثرهم من الجنود المصريين أتباع موسى ومن بقايا الهكسوس الذين بقوا في مصر بعد طرد الهكسوس منها وكانوا يعرفون بالعبريو أو العبيرو، بمعنى البدو الرحل الآسيويين الذين اضطروا بعد موت أخناتون إلى الخروج من مصر بسبب ديانتهم المناوئة للوثنية، وقد انضم إلى هؤلاء بعض الأسرى الهاربين والعبيد الفارّين من سادتهم، والظاهر أن فلسطين كانت أقرب ملجأ للعبيد المصريين الفارين من أسيادهم، فيؤكد ذلك الكاتب الفرنسي جان برنار ***J.L. Bernard*** إذ يقول: «لقد كان وضع فلسطين المؤلم قد خلع عليها في الشرق اسم المنطقة التي تؤوي العبيد الآبقين من أسيادهم... أما النبي موسى الذي خرجت الجماعة بقيادته فهو نفسه مصري صميم وُوصف بأنه قائد مصري»[1].

وهو يقول في حاشية الصفحة نفسها:

«إن هؤلاء الجنود هم من بقايا حامية الملك أخناتون في عاصمة (تل العمارنة، وهي مكونة من «آسيويين وزنوج» وقد كانوا

---

(١) العرب واليهود، ص ٤٨٠.

بالطبع على دين أخناتون، فقد اختارهم الملك كجنود الحرس الملكي ليضمن ولاءهم له ولعقيدته الجديدة وذلك لعدم ثقته بالجنود الذين يدينون بدين آمون والذين بقوا على عقيدتهم القديمة مع أكثرية الشعب سراً. ولا شك أن هؤلاء (الآسيويين والزنوج) كانوا مضطهدين بعد موت أخناتون لاعتناقهم ديانة أخناتون التوحيدية، والأرجح أنهم طردوا من الجيش أو هربوا من عاصمة أخناتون فالتحقوا بجماعة موسى (وهو القائد المصري الذي كان على دين أخناتون أيضاً) كما التحق معهم بقايا الهكسوس الذين كانوا مضطهدين أيضاً بعد زوال حكم الهكسوس من مصر»[1].

وليس مفاجأة بعد ذلك أن نجد كِتاباً مترجماً لكتاب يحمل اسم: «الإسلام وبنو إسرائيل»، يقول فيه:

«ويقول مانيتو من المؤرخين القدامى:

كان بنو إسرائيل في مصر عمالاً سخرة أذلاء، وكان البلد موبوءاً فطردهم منه الشعب المصري بالقوة لما عرفه فيهم من القذارة والبؤس».

والحقيقة أن اليهود لا يغادرون بلاداً استوطنوها بمحض

---

(١) المرجع نفسه. وانظر ص ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥، ٤٨١.

ونحن لا نفهم معنى استخدام عبارة مثل: «موسى عليه السلام» ص ١٣ في كتاب، الأحمد، فلسطين تاريخاً ونضالاً، ثم بعد ذلك الاعتماد على التوراة دون القرآن الكريم في قصة الخروج.

إرادتهم ما داموا يمتصون دماء سكانها امتصاص القراد دم الحيوان. فرواية الأرض الموعودة، وخروج اليهود من مصر بحثاً عن الوطن ما هي إلا قصة محبوكة بنوا عليها خيالهم ومستقبلهم، فالمؤرخ الروماني وُوْردْ وصف مغادرة اليهود لأرض مصر بأنها كانت شبه مظاهرة احتجاجاً على من كانوا يذيقونهم من ألوان العذاب والتسخير والأعمال الشاقة الكثير والكثير.

ادّعى المؤرخان المذكوران آنفاً بكل برود «أن سيدنا موسى عليه السلام كان راهباً مصرياً يبشر لدى اليهود المصابين بالجذام». ويدّعيان أيضاً «أنه صرف جهده الأكبر لتربيتهم، وتعليمهم وتلقينهم الأخلاق الفاضلة» ويستطردان كذلك قائلين إنه لم يظهر اليهود عندما دخلوا مصر بمظهر من طبعوا على الأخلاق الكريمة، أو تدربوا على الأخذ بالقانون وحب النظام، وحكومة الفراعنة التي كانت بشكلها توحي لأول وهلة بمظاهر الاستبداد في إدارتها تعتبر مثالية منظمة إذا ما قورنت بحكومة الأباطرة حيث كانت محدودة بقانون ومقيدة بلوائح، بينما كان بنو إسرائيل على نقيض ذلك تماماً، لأنهم كانوا يعادون المبدأ والنظام والقانون، بخلقتهم وطبيعتهم، ومنطقي أن لا يستقر الفوضويون في بلد استقرت أحوالها في نطاق النظام والقانون ولهذا ينبذون دائماً من أهل النظام والقانون أينما كانوا[1].

---

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، ص ص ١٦ ــ ١٧.

=

وجميل أن ينبه المترجم إلى سفه هذه الأقوال، فيعلق في الحاشية قائلاً:

«هذا ما ذهب إليه المؤلف آتلخان والمؤرخان مانيتو ووورد. ولكننا نعقب على ما ذهبوا إليه ونقول إن الله سبحانه وتعالى قال في سورة المائدة في الأرض الموعودة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ صدق الله العظيم، ونرد عليهم كذلك بأن سيدنا موسى أخذ بني إسرائيل وخرج بهم من مصر بأمر من ربه، إذ جاء في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ إلى آخر القصة، فلم يقع هناك طرد كما ذهب إليه الكتاب. والمؤلف ناقض نفسه بما أورده بالاقتباس من نص التوراة، الإصحاح التاسع، في الصفحة الثالثة عشرة في الفقرة الأخيرة، وفي الصفحة الثامنة عشرة في الإصحاح الخامس فجاء على لسان سيدنا موسى في الإصحاح التاسع «أفرج عن قومي...» وفي الإصحاح الخامس «أطلق شعبي...» أي أن فرعون كان يتمسك بعدم الإفراج عن بني إسرائيل وبعدم إطلاقهم».

والأغرب بعد ذلك أن نسمع مثل هذه الآراء من صابر طعيمة، فيستشهد بالتوراة لا بالقرآن، فيقول، واضعاً تأكيده بين قوسين معقوفين:

«صدرت الأوامر الفرعونية [كما تحكي التوراة وتقص] بقتل الأبناء واستحياء النساء»[1].

= وانظر كتاباً مترجماً آخر، لـ روجيه غارودي، الذي يحشد كل الآراء الباطلة السالفة، فلسطين، ص ص ٤٤ ــ ١١٧.

(١) اليهود بين الدين والتاريخ، ص ١٣١.

وهو المعنى الموجود في القرآن الكريم. بل كيف يغيب عنه ما جاء في القرآن الكريم، حتى ليقول:

«نصح موسى بأن يخرج من مصر وبأن يتجه إلى سيناء مصر ليعيش بعد ذلك في «مدين» حتى تنتهي الأزمة، ومن عجب أن الذين نصحوا موسى لم يكونوا من بني جنسه الإسرائيليين بل كانوا من المصريين، ومن أعجب العجب أيضاً أنه قبل أن يذهب إلى: «مدين» ويلتقي بشيخ كهانها، ويتزوج من إحدى ابنتيه أن كان الرجل موسى يسير متوجهاً لحاله عقب هذا الحادث وقبل أن يفر إلى خارج مصر فوجد في الطريق موقف نزاع بين رجلين من بني جنسه في شجار، وأراد أن يتدخل أيضاً هذه المرة خاصة وأن العراك بين اثنين من بني جنسه، فما كان من أحد الرجلين، إلا أن أفصح عن موقف غريب عبر عن علاقة بني إسرائيل بموسى خاصة في فترة الحرج السياسي التي وقع فيها موسى حين كان بمثابة مطرود من السلطات بأنه قال له، كما تعبر التوراة بالحرف: «من حكمك وجعلك قاضياً علينا، ألعلك تريد قتلي كما قتلت المصري بالأمس»[(١)].

ألا يعني هذا المساسَ بشخصية موسى عليه السلام، ونحن نعمل على ترسيخ احترام الأنبياء وتعظيم النص القرآني؟

ولندع التعليق على وصفه النبي شُعيب بـ «كاهن مَدْيَن»[(٢)].

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٨.

فالكهانة مسمى وثني، فإن كان هو شُعَيباً، فهو نبي، لا كاهناً.

وذلك ما تورط فيه يوسف هيكل، حينما قال:

«تزوج موسى ابنة كاهن مدين الذي يعبد «يهوه»، وعلمه هذه العبادة الجديدة فأتبعها اليهود وهي عبادة أصنام... ومدين هي بلاد النبي العربي «شعيب»... ويهوه الإله العربي الشمالي...»[1].

ويزعم صابر طعيمة أيضاً، أن ذهاب موسى إلى مدين:

«لا جدال في أنه كان يجوب المنطقة الممتدة حواليه، ويحاول أن يعرف أسرارها ويقف على نظام الحياة فيها»[2].

ويبدو أن صابر طعيمة في هذا الكتاب يلخص آراء غيره ويكررها، دونما إشارة إلى أحدها.

ويلتقي إسماعيل الفاروقي مع هذه الاتجاهات، فيقول في تناقضات صارخة:

«إن العبريين في مصر اختصوا بنزعتين مختلفتين، العنصرية والحنيفية، ويعقل أن العنصرية امتنعت عن مؤاخاة المصريين فنشأ الاضطهاد وأدى إلى الخروج، أما الحنيفية، فكيف لها أن تؤدي إلى الخروج، ولقد افترضنا خروج الحنيفيين مع العنصريين؟

إن اختلاف الحنيفيين مع المصريين أكثر أهمية من اختلاف

---

(١) فلسطين قبل وبعد، ص ٤٦.

(٢) اليهود بين الدين والتاريخ، ص ١٣٩، وانظر ص ١٤٥.

المصريين معهم وأصعب فهماً، فالتفكير والسلوك العنصري أمرهما يسير وكلاهما قريب جداً من التصادم الذي لا بد وأن يؤدي إما إلى سيادته أو قهره، فالخروج كحل للخلاف العنصري ـ المصري حل مسالم، بعيد الوقوع عندما يتحدى الضيف المضيف بفكرة «أنا أفضل منك لأني أنا».

أما عند الحنيفية المسالمة، المؤاخية العقلية؛ التي تدعو إلى إقامة أخوة عالية دون تمييز، تحت القانون الأخلاقي، فمن الأقرب أن يتجه الفكر فيها إلى الخروج كحل يرضي الطرفين معاً إذا حصل التصادم بينها وبين الفرعونية.

فالمنطق الذي أقنع رمسيس الثاني بالسماح للعبريين بالخروج لا بد وأن يكون قد تقدمت لفرعون بمشروعها، بفكرتها عن وحدة العالم والبشر، سائلة أن يسمح لها بمتابعة دعوتها في أرض مصر. ولما لم يسمح لها فضلت أن تخرج إلى الشرق حيث يشاركها أقرباؤها وذووها نفس الإيمان ونفس الفلسفة، والصلة بينهما وبين جيرانها في الشرق كانت لا شك قائمة لم تنقطع، وهي الحقيقة التي يفترضها نزول موسى في مدين ومصاهرته لهم بل ارتباطه بهم بصلة القربى عن طريق أمه. فلا شك أن الخارجين كانوا على موعد مع المدينيين، وكانت تطورات الموقف الطويلة معروفة لديهم يترقبونها عن كثب»[(١)].

بل إن الأشد تناقضاً فيه قول سعفان، وقد أورد فرار موسى

(١) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ص ٣٥ ــ ٣٦.

القائد العسكري، كما أثبت، فيستشهد بالقرآن الكريم، ثم يعود ليفسر الآيات وفق هواه:

«وكما جاء في القرآن الكريم أن موسى قتل مصرياً، وخاف أن يؤخذ بجريمته ففر إلى بلاد مدين، والتقى بكاهنها يثرون ــ نبي الله شعيب ــ وتزوج ابنته، وأخذ عنه بعض التعاليم الدينية، وحين عودته إلى مصر ناداه الله:

﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ . . وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ . . ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ . . ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ . . فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[١]

وتكون النتيجة عنده، هي:

«ومن ثم يكون فرار موسى إلى مدين ليس بسبب (جريمته) في الدرجة الأولى، بل بسبب موقف تحتمس من حتشبسوت، ومن هنا كنت صعوبة مواجهة الفرعون الجديد بالدين الجديد»[٢].

وهكذا، إذن، كما يقول:

«نجح موسى في تجميع الشعب اليهودي من حوله، وانضم إليه عدد من المصريين الساخطين من الأسارى والعبيد»[٣].

ويلتقي **سعفان** بعد هذا مع غيره في تصوير سخرة بني

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

إسرائيل في مصر بأنه ابتزاز واستغلال، فيقول:

«وخرج (الشعب) فاراً من وجه فرعون (منفتاح ـ ١٢١٣ ق. م) الذي أبى إلا أن ينتقم من هؤلاء الذين قصدوا إلى تدمير الاقتصاد المصري»[(١)].

ونجد صدى هذ الآراء عند العفتان، الذي يقول:

«قام الإسرائيليون بدور التجسس وترويج الاشاعات لصالح فريق ضد فريق مستغلين وضعهم الاجتماعي كفئة منحطة لا يرى لها خطر في لعب دور خطير بين المتحاربين للحصول على المكاسب المادية ولمحاولة الوصول إلى حظوة الفريق المنتصر.

وقد كادوا يهلكون في أول محاولة لهم من هذا القبيل على يد الفرعون رعمسيس الذي استعبدهم وفرض عليهم اجراءات صارمة حولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق بعد أن عاونوه وأسلافه في إسقاط دولة الهكسوس التي حمكت مصر حوالي مائتي سنة من منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد»[(٢)].

واختصاراً لكل ما مر، ندرج هنا رأي سعفان، الذي انخدع بالمزاعم السابقة، فبدا عليه العجز والاضطراب، وهو يورد مقولات سوسة من غير أن ينسبها له، فيقول:

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) حقيقة اليهود، ص ٤٨.

«وماذا يحول دون أن يصبح موسى قائداً في جيش مصر وقد ربط يوسف بين اليهود وأهم المناصب في الدولة؟!

ثم إن اليهود كانوا في خدمة (الهكسوس) المستعمرين، مما يساعد على الوصول إلى المراكز الحساسة، وتاريخ الشرق مع اليهود»[1].

ثم ينقل عن ول ديورانت، أنه يروي:

«أنه كشفت في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى أنجته في عام ١٥٢٧ ق.م الأميرة حتشبسوت، وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها، وأنه فرّ من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث»[2].

ولا شك أننا لن نحاول استقصاء كل هذه التشويهات العلمية، وإنما هدفنا تقديم نماذج على ذلك الخطل وفساد المنهج، ولنسمع ظاظا يقول:

«النعرة العنصرية قديمة في اليهود:

في هذا الجو من التطور الطبيعي يظهر العبريون على مسرح التاريخ القديم، وكان من الممكن أن يظل أولئك الناس مغمورين

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١٢.

(٢) المرجع نفسه. وانظر سوسة، العرب واليهود، ص ٤٦٣. وانظر الخشّاب، تاريخ اليهود القديم بمصر.

لا شأن لهم ولا خطر منهم، لولا أنهم اصطدموا منذ البداية بهذه الدولة العظمى المتحضرة القوية.

ففي مصر بعث موسى عليه السلام برسالة التوحيد، وُتعتبر شخصية هذا الرسول العظيم من المشاكل التي لم يستطع التاريخ حتى الآن أن يلقي عليها ضوءاً يقينياً واضحاً. ومع ذلك فإنه لا شك في أن دعوة موسى كانت من الدعوات الأولى إلى تحرير البشر، كل البشر، من العبودية والوثنية، ولا شك في أنه دعا الناس إلى عبادة إله واحد لا تدركه الأبصار، وإلى نبذ الأصنام، وترك الشرك بهذا الإله الواحد، ودعاهم كذلك إلى الكف عن تأليه فرعون، وحرّم عليهم أن يعبدوا مخلوقاً مثلهم. فهو بذلك قد كان من أولئك المصلحين والمحررين الذين تحدّوا الجهالة كما وقفوا في وجه الطغيان وقفة لا هوادة فيها»[١].

ولندع هذا التضارب في المواقف بين كل فقرة وجملة من الفقرتين السابقتين، مثل: «في مصر بعث موسى عليه السلام برسالة التوحيد».

ولنستمع إليه يقول: وكأنه يردد آراء من يزعم أن دعوة موسى حركة ثورية:

«فهؤلاء الناس الذين خرجوا مع موسى كانوا خليطاً من البشر، من العبيد وأسرى الحروب والأجانب المتبرمين بطغيان

(١) أبحاث في الفكر اليهودي، ص ١٠٢.

فرعون. وهم إنما رضوا بالخروج من أرض مصر مع موسى لأنهم كانوا لا يملكون شيئاً في البلاد، بل كانوا أجراء يعملون لقاء قوت يومهم فقط. ولم يكن مع موسى من المصريين غير السبعين رجلاً الذين اختارهم، وجعل لهم الرياسة والقيادة لهذه الثورة التي فجّرها ضد الوثنية والطغيان الفرعوني»[1].

ثم ها هو يعود مذكراً بفرويد:

«وسواء أكان الأمر كما يقول فرويد أم كان خلاف ذلك، فالذي لا شك فيه أن النعرة العنصرية التي نادى بها اليهود بعد موسى إنما كانت من اختراعهم هم، ومن خلالها حوّلوا ذكرى الخروج كما قلنا إلى مناسبة لتقوية هذا الشعور العنصري، وتعميق الأحقاد ضد الأمم الأخرى»[2].

«تُعتبر شخصية هذا الرسول العظيم من المشاكل...».

ويواصل حديثه، قائلاً:

«أراد موسى أن يخفف من آلامهم، وأن يبث في قلوبهم الأمن والأمل، فقال على لسان الرب في جبل حوريب: (إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل

---

(١) أبحاث في الفكر اليهودي، ص ص ١٠٤ ــ ١٠٥

(٢) المرجع نفسه. وقد اضطر ناشر الكتاب إلى التعقيب على ظاظا والاستشهاد بالآيات التي تثبت خلاف ما يقوله فرويد. انظر حاشية ص ١٠٥.

مسخريهم، إني علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جديدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأمويين والفرزيين والحوريين واليبوسيين) خروج ـ ٣»[١].

وهذا الذي يقوله سعفان، هو في الحقيقة عين ما قاله سوسة، فسوسة يقول:

«ومما يدل على أن الجماعة التي سخرها رعمسيس الثاني (١٣٠٠ ـ ١٢٣٣ ق. م) لبناء مدينته المسماة باسمه (رعمسيس)، وقد اعتبرت التوراة هذه الجماعة بني إسرائيل هي من بقايا الهكسوس وليست في مصر، وبطبيعة الحال فإن من بقي من الهكسوس في مصر لابد وأن يكون قد تجمّع في هذه المنطقة ذاتها فسُخِّروا في بناء المدينة الجديدة في نفس المكان، مع العلم أن المصريين كانوا يعتبرونهم بعد القضاء على حكم الهكسوس في مصر مصدر خطر على الدولة، ومما يؤيد ذلك «أن المؤرخ المصري القديم مانيثون يشير إلى أن بقايا الهكسوس الذين تخلّفوا في مصر بعد زوال حكم الهكسوس من البلاد قد تحصنوا في العاصمة أفاريس ولم يستطع المصريون التغلب عليهم فلجأوا إلى المصالحة على أن يخرج الجميع مع ممتلكاتهم من غير أن

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ص ١٠ ـ ١١.

يُمَسُّوا بسوء»[1].

ويسوق سوسة الأحداث وفق نظرته الخاصة، فيقول:

«ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن المصريين كانوا يُسَمُّون بقايا الهكسوس «عبريو» أو (عبيرو) وقد صار هؤلاء خطرًا على البلاد، بعد تزايدهم فيما إذا انضموا إلى الأعداء، فأجبروا على العمل في بناء الرعمسيوم والبيتوم وعاشوا في مصر عيشة العبودية يعملون في الحقل وفي البناء، وقد ورد اسمُهم في برديتين مصريتين تعودان بتاريخهما إلى عهد رع موسى الكبير (رعمسيس الثاني) (١٣٠٠ ــ ١٢٣٣ ق.م.)، إذ ورد في إحداهما، وهي رسالة الكاتب «كويسر» إلى «بكنفتاح»، يقول: «أعط الجنود قوتهم واعط أيضاً العبريو الذين ينقلون الحجارة لبناء الملك رع موسى الخ..» وأما الرسالة الثانية فهي رسالة من «كينا» إلى «كجاناهو» يقول فيها: «اطلعت ما أمرني به سيدي قائلاً: أعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضاً الذين ينقلون الحجارة لهيكل الشمس...»[2].

وواضح أن هنا سوء فهم في تفسير عبريو أو عبيرو على أنهم الهكسوس، فإذا كانت البرديتان تثبتان الاضطهاد، فإن هذا يثبت ما أورده القرآن الكريم عن اضطهاد بني إسرائيل لا الهكسوس.

لقد فعلت مفتريات التوراة المحرفة أفاعيلها في عقول الكتّاب والمؤلفين العرب، فانساقوا معها حتى أنْسَتْهم أنهم إنما يكتبون لعرب مسلمين في غالبيتهم، أو حتى مسيحيين لا يقرونهم

---

(١) العرب واليهود، ص٤٨١. (٢) المرجع نفسه.

على ذلك، يقول سعفان عن بني إسرائيل، متبنّياً أفكار التوراة المحرفة، ومفتوناً بمقولات غيره من المحدثين:

«وخلال وجودهم في مصر ربطوا مصالحهم بوجود حكام مصر من (الهكسوس) المستعمرين (٢٠٩٨ ـ ١٥٨٧) ق. م وأنشبوا مخالبهم في الاقتصاد المصري، واتّسع نفوذهم في مجالات مختلفة، فلما انتصر المصريون على الهكسوس نقم الحكم الوطني عليهم، لأنهم أثروا على حساب المواطنين المغلوبين على أمرهم، وتآمروا مع المستعمر ضد أصحاب الأرض، ولم يشاركوا فيما يباشر المصريون من أعمال البناء وفلاحة الأرض، وحينما كانت الشدائد تنزل بالبلاد استغلوها لإضعاف معنويات الشعب، وضيّقوا عليه وسائل العيش، ومن ثم أحس اليهود في ظل الحكم الوطني، بأن دولتهم إلى زوال، فأخذوا يجمعون أموالهم، ويستعدون للإفلات بمكاسبهم، لكنهم تجاوزوا وطمعوا فيما يملك المصريون من الذهب، ونهبوا خزائن القمح في المنطقة التي تمركزوا فيها بإقليم الشرقية، منطقة الصالحية اليوم، إذ صدرت إليهم أوامر الرب: (إنكم لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة، وأمتعة ذهب وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم، فتسلبون المصريين) خروج ـ ٣»[1].

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ص ١٠ ـ ١١. وانظر تكرار للرأي نفسه، دراسة في اليهودية والنصرانية، ص ٥٣ ـ ٥٤، ١٨٠.

ويسترسل مع هذه النغمات، فيقول:

«لكن مطاردة المصريين لهم، وقسوة ما أصابهم من الهلع والرعب، جعلهم يتيهون في سيناء أربعين عاماً، لا يدرون من أمرهم، حتى كاد يفنى جيل (الخروج) وقدّر (الرب) ما أصابهم، فقال: (لا يرد الشعب إلى مصر، الرب قد قال لكم: لا تعودوا ترجعون في هذه الطريق) (تثنية ــ ١٧أ) ونسي (الرب) ميثاقه لإبراهيم»[١].

وأخيراً، يقول سعفان:

«كان هذا البذخ والإسراف الذهبي في عصر (الخروج) اليهودي من مصر، في عصر الانتصارات المصرية في آسيا وأفريقيا، فلا عجب أن تنطبع نفوس (الخارجين) المطاريد بوهم استعادة الوجود المصري في حيثما يجدون القدرة على الابتزاز والنهب، وفرض سلطان مستبد بغيض»[٢].

رد وتعقيب

تكشف تلك الورقات عن مضمون التفكير عند الكتاب العرب المحدثين، أو إجمالاً ما يسمّى بالبحث العلمي الحديث، وإن كانوا قد أَخَلُّوا كثيراً بالمنهج العلمي، فاستدعى ذلك من النقولات ما يؤيد آراءهم، ويثبت حججهم، سواء كانت هذه

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) دراسة في التوراة والأنجيل، ص ٧٨.

النقولات متحقَّقاً منها، أو أنها افتراضات خاصة، واجتهادات فردية تستند إلى الأهواء والنزعات، كما هو الحال في الاستشهاد بفرويد، مع أن أحداً لم يضع يده حتى الآن على وثيقة علمية يستشهد بها ويدافع بوساطتها، أو تدفع الأقوال المعارضة.

لقد رأينا أن القرآن الكريم يقر بوجود جماعة يطلق عليها: «بنو إسرائيل». واستمر القرآن في تأكيد هذا الأمر في عهد يوسف عليه السلام، وبلغ من تضييق دائرة بني إسرائيل إلى أن أُشعرنا أنهم مثلوا جماعة منبوذة، صغرى في مجتمع وثني كبير.

وجاء القصص القرآني عن موسى لينتزع هؤلاء المضطهدين المستضعفين من وهدة الذل والخسف، فينقذهم من براثن الوثنية، وطغيان الفراعنة، واستعباد المصريين.

إن موسى عليه السلام في القرآن الكريم أحد بني إسرائيل أولئك. قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠].

وسبب الخروج، هو الثورة على الظلم والاستعباد: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: ٦].

وعندما نشأ موسى، تحمّل الدعوة، المعروفة نتائجها

سلفاً، وهي الرفض والاستنكار: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ [يونس: ٧٨].

لقد كان موسى نبياً مبعوثاً، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس: ٧٥].

يقول الطاهر بن عاشور في تفسير الآية:

«(ثم) للتراخي الرتبي لأن بعثة موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ كانت أعظم من بعثة من سبقهما من الرسل، وخُصت بعثة موسى وهارون بالذكر لأنها كانت انقلاباً عظيماً وتطوراً جديداً في تاريخ الشرائع وفي نظام الحضارة العقلية والتشريعية فإن الرسل الذين كانوا قبل موسى إنما بعثوا في أمم مستقلة، وكانت أديانهم مقتصرة على الدعوة إلى أصلاح العقيدة، وتهذيب النفوس، وإبطال ما عظُم من مفاسد في المعاملات، ولم تكن شرائع شاملة لجميع ما يحتاج إليه من نظم الأمة وتقرير حاضرها ومستقبلها.

فأما بعثة موسى فقد أتت بتكوين أمة، وتحريرها من استعباد أمة أخرى إياها، وتكوين وطن مستقل لها، وتأسيس قواعد استقلالها، وتأسيس جامعة كاملة لها، ووضع نظام سياسة الأمة، ووضع ساسة يدبّرون شؤونها، ونظام دفاع المعتدين عليها من الأمم، ويمكنها من اقتحام أوطان أمم أخرى، وإعطاء كتاب يشتمل على قوانين حياتها الاجتماعية في كثير من نواحيها، فبعثة موسى كانت أول مظهر عام من مظاهر الشرائع لم يَسبق له نظير في تاريخ الشرائع قد امتاز بكونه تلقينا من الله المطلع على حقائق الأمور، المريد إقرار الصالح وإزالة الفاسد.

وجعل موسى وهارون كليهما من حيث إن الله استجاب لطلب موسى أن يجعل معه أخاه هارون مؤيداً ومُعْرِباً عن مقاصد موسى فكان بذلك مأموراً

من الله بالمشاركة في أعمال الرسالة، وقد بينته سورة القصص، فالمبعوث أصالة هو موسى وأما هارون فبُعث معيناً له وناصراً، لأن تلك الرسالة كانت أول رسالة يصحبها تكوين أمة»[1].

أما النتيجة المتوقعة من تلك الرسالة فهي: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس: ٨٣].

ويفسر ابن عاشور هذه الآية بقوله:

«أي: فما آمن بما جاء به موسى إلا أبناء بني إسرائيل، ولم تبلغ دعوته بقية قومه، أو لم يؤمر بالتبليغ إليهم حينئذ».

ويقول كذلك في تفسيرها:

«أي: من الحاضرين في ذلك المشهد من بني إسرائيل».

أما فيما يتعلق ببقية بني إسرائيل. فإن دعوته شملتهم بعد ذلك المشهد، مشهد اجتماع السحرة وإلقاء موسى عصاه أمام فرعون وملأه: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يونس: ٧٩ ـ ٨٢][2].

ويحدد ابن عاشور مفهوم بعثة موسى، فيقول:

---

(١) تحرير التفسير، ج ١١ ص ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه، ج ١١ ص ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠.

كان موسى مبعوثاً لبني إسرائيل خاصة ولفرعون وملأه لأجل إطلاق بني إسرائيل.

وعندما قرر موسى الخروج ببني إسرائيل، اتخذ خطوة للهروب، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧][1].

ويأتي ابن عاشور بتفسير عجيب لهذه الآيات، فيقول: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس: ٧٥ ــ ٧٧].

وفرعون ملك مصر، وقد مضى الكلام عليه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ في سورة الأعراف، وعلى صفة إرسال موسى إلى فرعون ومثله، وفرعون هذا هو منفطاح الثاني أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة من الأسر التي ملكت بلاد القبط.

والمراد بالملأ خاصة الناس وسادتهم وذلك أن موسى بُعث إلى بني إسرائيل وبُعث إلى فرعون وأهل دولت ليطلقوا بني إسرائيل.

والسين والتاء في (استكبروا) للمبالغة في التكبر، والمراد أنهم تكبروا عن تلقي الدعوة من موسى، لأنهم احتقروه وأحالوا أن يكون رسولاً من الله وهو من قوم مستعبدين استعبدهم فرعون

---

(١) تحرير التفسير، ح ١١، ص ٢٤٧.

وقومه، وهذا بوجه اختيار التعبير عن إعراضهم عن دعوته بالاستكبار كما حكى الله عنهم فقالوا: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾.

وتفريغ ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ على جملة ﴿بَعَثْنَا﴾ يدل على أن كل إعراض منهم وإنكار في مدة الدعوة والبعثة هو استكبار.

وجملة ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ في موضع الحال، أي وقد كان الإجرام دأبهم وخلقهم فكان استكبارهم على موسى من جملة إجرامهم»[1].

أما عن التهيء للخروج، فيقول عن الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧]

«ومعنى تبوؤ البيوت لقومهما أن يأمروا قومهما باتخاذ البيوت على الوصف الذي يأمرانهم به. وإذا قد كان لبني إسرائيل ديار في مصر من قبل، إذ لا يكونون قاطنين مصر بدون مساكن، وقد كانوا ساكنين أرض (جاسان) قرب مدينة (منفيس) قاعدة المملكة يومئذ في جنوب البلاد المصرية (كما... في سورة البقرة)، لا جرم أن تكون البيوت المأمور بتبوئها غير البيوت التي كانوا ساكنيها»[2].

ويورد الاختلاف في فهم ما سبق، قائلاً:

«واضطرب المفسرون في المراد من هذه البيوت وذكروا روايات غير

---

(١) المرجع نفسه، ج ١٦ ص ٢٤٧.

(٢) المرجع نفسه، ج ١١ ص ٢٦٥.

ملائمة لحالة القوم يومئذ. فقيل: أريد بالبيوت بيوت العبادة أي مساجد يصلون فيها، وربما حُمل على هذا التفسير من تأويله وقوع قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عَقِبه. وهذا بعيد لأن الله علم أن بني إسرائيل مفارقون مصر قريباً بإذنه. وقيل: البيوت بيوت السكنى وأمسكوا عن المقصود من هذه البيوت. وهذا القول هو المناسب للتبوؤ لأن التبوؤ السكنى، والمناسب أيضاً لإطلاق البيوت، وكونها بمصر»[1].

«فالذي يظهر بناء عليه أن هذه البيوت خيام أو أخصاص أمرهم الله باتخاذها تهيئة للارتحال وهي غير ديارهم التي كانوا يسكنونها في (جاسان) قرب مدينة فرعون وقد جاء في التوراة ما يشهد بهذا التأويل في الرابع من سفر الخروج: إن الله أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل إلى البادية ليعلموا عيد الفصح ثلاثة أيام وأن ذلك أول ما سأله موسى من فرعون، وأن فرعون منعهم من ذلك... وقد صار لهم ذلك عيداً بعد خروجهم»[2].

ثم كان الخروج

يقول ابن عاشور عن قوله تعالى:

﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ۝٩٢ ﴾ [يونس: ٩١ ـ ٩٢].

«واعلم أن هذه الآية أصرح آية في القرآن دلالة على أن فرعون الذي أرسل إليه موسى والذي اتّبع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر قد أصابه الغرق. وقد أشارت إليه آية سورة الأعراف وآية سورة البقرة.

---

(١) المرجع نفسه، ج ١١، ص ٢٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

وفرعون هذا هو منفطاح الثاني، ويقال له (مَيْرنْبَتَا) ــ بباء فارسية ــ أو (منفتاح)، أو (منيفتا) وهو ابن رعمسيس الثاني المعروف عند اليونان باسم (سَيْزُوسْتيس)، من ملوك العائلة التاسعة عشرة من الأسرة الفرعونية، وكانوا في حدود سنة ١٤٩١ قبل المسيح.

قال ابن جريج: كان فرعون هذا قصيراً أحمر فلا شك في أن منفطاح الثاني مات غريقاً في البحر، وأنه خرجت جثته بعد الغرق فدُفن في وادي الملوك في صعيد مصر. فذكر المنقبون عن الآثار أنه وجد قبرُه هناك، وذلك يومىء إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩٢]. ووجود قبر له إن صح بوجه محقق، لا ينافي أن يكون مات غريقاً، وإن كان مؤرخو القبط لم يتعرضوا لصفة موته، وما ذلك إلا لأن الكهنة أجمعوا على إخفائها كيلا يتطرق الشك إلى الأمة فيما يمجد به الكهنة كل فرعون من صفات بنوة الآلهة.

وخلفتْه في ملك مصر ابنته المسماة (طوسير) لأنه تركها وابنها صغيراً.

وقد جاء ذكر غرق فرعون في التوراة في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج بعبارات مختلفة الصراحة والإغلاق»[1].

ومن دقائق القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ وهي عبارة لم يأت مثلها فيما كُتب من أخبار فرعون، وإنها لَمِن الإعجاز العلمي في القرآن إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي. والظاهر أن الأمواج ألقَت جثته على الساحل الغربي من البحر الأحمر فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقُوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٢٨٠ ــ ٢٨١.

ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة وكان عبرة لهم»[1].

وبعد ذلك تختتم قصة موسى بقوله تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾﴾ [طه: ٨٠ ـ ٨١].

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس: ٩٣].

لأن مشيئة الله جارية فيهم، فقد حل بهم غضب الله...

وهكذا اتضح لنا أن موسى ليس رجلاً عسكرياً محارباً، وإنما نبي مبعوث إلى بني إسرائيل، وأن الذين خرجوا من مصر هم جماعة إسرائيلية: (بنو إسرائيل).

ويتوقف القرآن الكريم عند هذا، فلا يتحدث عن دخول فلسطين، ولا عن الحروب والمنازعات بعد موت موسى.

ومن أجمل ما قرأت حول وفاة موسى عليه السلام، التي دارت حولها الافتراضات مما نحن في غنى عن ذكره، ما أورده

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

محمد بن مهنا العلي في كتابه «صراعنا مع اليهود»:

«توفي موسى قرب كثيب أحمر قرب فلسطين بعد أن تمنى على الله ألا يموت إلا وهو يرى فلسطين...، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما أسرى بي مررت بموسى وهو قائم يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر»، رواه مسلم»[1].

أما ما قاله سعفان عن أن الخروج ابتزاز ونهب لمصر، ولذلك كان حلم اليهود بالعودة إلى مصر، فيلغيه ويبطله قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١].

فحسب التفسير الذي نراه، يكون المقصود بـ(مصر)، مصر البلد المعروف التي خرجوا منها، وهم يتمنون ما فيها من منتجات زراعية: قثاء، ثوم، عدس، بصل، وهي البلد التي ذاقوا فيها الذلة والمسكنة. إن تمنيهم العودة إلى الأرض الزراعية واستبدال الخير بالدنيء، يعكس أوضاعهم المتردية المسحوقة في مصر، على عكس ما يتصور سعفان.

---

(١) صراعنا مع اليهود الصلح المستحيل، ص ٦٢

والحقيقة أن فرعون والساسة المصريين لم يكونوا محبين لأوطانهم أو لشعبهم، بل كانوا قوماً جبارين، عاشوا على دماء الشعب المسحوق، استغلوا المشاعر الوطنية لتأليب الشعب على غيرهم في فترة الصراع مع موسى عليه السلام، ولم يكونوا يكترثون إلا بامتلاك السلطة في أيديهم وتسخير كل شيء في سبيل تحقيق طموحاتهم الشخصية، وقد كانت حركة موسى دعوة إلى الانتفاضة والتمرد على هذه السلطات الاستبدادية، بعد أن أصبح الفرعون إلها للمصريين قاطبة، ولم تنفع معه دعوات الخير والعدل والإصلاح الموسوية.

ولم تكن دعوة موسى تمرداً على قهر فرعون وجبروته، بل كانت نسفاً لكل قيم الظلام والاستعباد والتخلف، ففرعون، ككل الحكام المستبدين، كان يجد في أولئك الذين يساندونه، ويزينون أفعاله من تجار وإقطاعيين وانتهازيين، السند والعون ما داموا سائرين في صفه، موافقين على خطه، مهما كان أصل هؤلاء. وأصدق دليل على هذه السياسة المشؤومة ولاء قارون الإسرائيلي، لفرعون، وتقبل فرعون له. يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص: ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾

فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٥].

وعلى أولئك الذين يُعْلون هذه الأيام من شأن الفراعنة، أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى، عندما تحدث عن قصة فرعون وموسى، كان بذلك يقدم نموذجاً عالمياً أبدياً للحكومات الاستبدادية على مراحل التاريخ، فالفرعون هو الإله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص: ٣٨].

أي الحاكم المطلق الذي يبعث في رعاياه روح الاستسلام والتبعية، فيحطم معنوياتهم وقدراتهم على التفكير والإبداع، ثم هو يلجأ إلى السياسة الخبيثة، سياسة: «فرق تسد»، ويسلط قوى الشعب على بعضها بعضاً، ويثير فيما بينها النعرات الإقليمية والنزوات الطائفية، فتُخلق الفوارق الاجتماعية، حتى تتصارع الأمة فيما بينها، فتصفو له الأوضاع، وتستتب الأمور: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص: ٤].

وبعد ذلك يلجأ أولئك الحكام الطغاة إلى إيجاد شريحة من الشعب، يسلط عليها نقمة كل الشعب، فينشغلون عنه بهم، وينسى الجميع أنهم ضحايا سياسة حكم جائرة: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا

فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

والحق بعد ذلك هو:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨].

دعوة التوحيد بين موسى وأخناتون

إذا افترضنا أن كل الأحاديث السالفة كانت اجتهادات خاطئة انبنت على روايات سيّئة مدخولة، لا صحة لها ولا سند، فإن الحديث عن التوحيد، مسألة عقيدة، يجب أن يحترز المرء أشد الاحتراز عند الخوض فيها ومناقضتها، وأن يحسب حساباً لما بين يديه من مصادر، وأن يعود بفكر نيِّر ثاقب إلى الكتب السماوية جميعها، فلا يلغي هذا ويأخذ ذاك، لأنه يتعارض مع أهدافه وخططه للبحث والدراسة. فإذا انجرف الدارس إلى الرمي عُرض الحائط بكل المعتقدات والمسلمات الدينية، أصبح ضرره كبيراً، وخطره لا يحتمل. وفي مسألة التوحيد، يقول سوسة:

«ومما تجدر ملاحظته هنا هو الإله الذي كان يدعو موسى إلى عبادته هو الإله الواحد خالق السموات والأرض (الإله الواحد لاإله غيره) الذي كان يدعو إلى عبادته أخناتون فرعون مصر والذي تقوم عبادته على أساس مبدأ الإخاء العالمي بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولا صلة لموسى بالإله «يهوه» الخاص باليهود وحدهم باعتبارهم الشعب المختار، وهو الإله الذي استعاره كتبة التوراة

ونسبوا إليه صلته بموسى زوراً»[1].

ولكن سوسة التائه في أضاليل التوراة وخرافاتها، يقول:

«وهنـاك أدلـة كثيـرة علـى أن هـذه التـوراة الصحيحـة التي أنزلها الله تعالى على موسى وهي مصرية الأصل تقوم على مبادىء ديانة أخناتون»[2].

أما عبّود، فيأتي بتحليل فرويد لشخصية موسى، وفيما يتعلق بهذه الدعوة، على النحو التالي:

«ويرى مؤسس مدرسة التحليل النفسي، اليهودي المشهور، سيجمـونـد فـرويـد *sigmind Freud* (١٨٥٦ ــ ١٩٣٩)، أنـه لا يمكن فهم شخصية سيدنا موسى، دون فهم شخصية الإمبراطور المصـري أخنـاتـون، الـذي انتهـت علـى يـديـه، الأسـرة الحـاكمـة المصرية الثامنة عشرة، سنة ١٣٥٠ ق. م، حيث صارت مصر في عهده، «إمبراطورية عالمية، وانعكست الإمْبِرْيَالِيّة الجديدة، في تطور بعض الأفكار الدينية، إن لم يكن في أفكار الشعب كلّه، فعلى الأقل، في أفكار الطبقة الحاكمة، والفعالة ثقافياً. وتحت تأثير كهنة إله الشمس في آتون (هليوبوليس)، والذي ربما قوته أفكار، مصدرها آسيا، قامت هناك فكرة إله عالمي، آتون ــ لم

---

(١) العرب واليهود، ص ٤٨٠، وهوفي هذا يشايع رأي فرويد، انظر، ص ٤١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

يعد مقصوراً على شعب واحد، وبلد واحد. واعتلى العرش، الشاب أيمنحوتب الرابع (الذي غير اسمه فيما بعد، إلى أخناتون)، لم يول شيئاً عناية، أكبر من عنايته بتطوير فكرة هذه الإله. ورفع ديانة آتون، فأصبحت الديانة الرسمية، وبذلك صار الإله العالمي، هو الإله الواحد»[1].

ويمضي عبود في مشايعة رأي فرويد، فيقول:

«ويرى فرويد، أن انتهاء أمر الأسرة الثامنة عشرة سنة ١٣٥٠ق. م، قد قاد مصر إلى الفوضى، وبدء أصلاحات أخناتون الدينية التوحيدية. وأنه «ربما كان هناك رجل بين خلصاء أخناتون، يدعى توتمس *Thothmes*، كما يدعى الكثير في ذلك الوقت، ولا يهم الاسم، ولكن الجزء الثاني من اسمه، لا بد كان (موسى *Mose*) وكان يشغل منصباً كبيراً، وكان من المؤمنين المقتنعين بديانة آتون، ولكنه كان على نقيض الملك المتأمل، كان ذا قوة وعاطفة متدفقة. وكان موت أخناتون، والقضاء على ديانته، يعني بالنسبة لهذا الرجل، نهاية كل آماله»[2].

وهو يمضي وراء ذلك التحليل، فيقول:

«كما يرى، أنه يحتمل أن يكون موسى، في لحظة ضيقه

---

(١) اليهود واليهودية في الإسلام، ص ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٦.

هذا، قد «اتصل بقبيلة سامية معينة، كانت قد هاجرت منذ بضعة أجيال، وتحول في يأسه وفي وحدته إلى أولئك الأغراب، وبحث فيهم عن تعويض لما كان فقده، واختارهم ليكونوا شعبه، وحاول أن يحقق من خلالهم، مثله، وبعد أن غادر مصر معهم، يصحبه أتباعه الملاصقون، باركهم بختانهم، ومنحهم الشرائع، وبشرهم بديانة آتون، التي كان قد نبذها المصريون تواً. وربما كانت الشرائع، التي أخذ بها موسى يهوده، كانت أقسى من الشرائع، التي استنها سيده ومعلمه أخناتون، وربما كان قد ألغى كذلك، الارتباط بإله الشمس في أون، الذي كانت ديانة أخناتون، ما تزال من المؤمنين به»[1].

ويعيد سعفان مثل هذه الأقاويل، فيقول:

«ومما يؤسف له أن حياتهم الطويلة في أرض مصر تطبعهم بطابع الوحدانية التي شاعت في عهد (أخناتون)... حتى جاء موسى رسولاً من الله الواحد الأحد... ولا نكاد نجد تعبيراً في كتب العهد القديم عن هذه الوحدانية المصرية إلا في آخر هذه الكتب، بعد رحلة الخروج والتيه... إذ يقول سفر ملاخي: «ولكم أيها المتقون أسمى ـ تشرق شمس البر والشفاء في

(١) المرجع نفسه.

أجنحتها. . إشارة صريحة إلى إله الشمس المصري الذي كان يرمز له بقرص مجنح. . .»[1].

غير أن العجب أنه يقول:

«أما الله (الذي لا تدركه الأبصار) الإله (اللطيف)، الذي هو (نور السموات والأرض)، فلا تعرض له كتبهم إلا في صورة كائن محدود بحدود مرئية»[2].

ومن العجيب أنه يقول بعد ذلك:

«كانت الديانة في مصر قد وصفت الله على لسان أخناتون بكل ما هو من صفاته جلّ شأنه»[3].

ويصل به الأمر إلى أن يقول:

«ثمة صلة قوية بين موسى عليه السلام وأخناتون، إذ أن موسى ــ كما يقول فرويد ــ قد تلقى علومه في معبد أون الذي تخرج فيه أخناتون»[4].

ثم هو ينقل عن توينبي، المؤرخ البريطاني:

«. . . كان من الممكن أن يتطور الدين اليهودي، بعد بلوغه

---

(١) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ص ٢٠ ــ ٢٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٠.

مرحلة التوحيد المطلق في بابل...»[1].

ويأتي سعفان بعبارة لا تَحرّز فيها، تقول:

«إذ عرفنا أن موسى وهارون والكهنة جميعاً من سلالة (لاوي) لم يغب عنا أن ما يفعله (لاوي) يصبح من شريعة موسى...»[2].

وعلى الرغم من تلك التأكيدات، فإن سعفان يعود فيقول:

«إذا صح أن موسى كان على ديانة أخناتون»[3].

ومن أغرب الغرائب في الذهنية العربية أن ينقل صابر طعيمة رأي فرويد نقلاً عن غيره، فيورد المتناقضات، وكأنها مسلمات، فيقول:

«أخناتون ملك مصر العبقري... هفت نفسه للوحدانية المجردة عن الأغراض الدنيوية، وتبلورت عقيدته في عبادة القوة التي تعتبر الشمس أعظم مظاهرها على الأرض... وأول ما يلفت نظر العلامة فرويد... اسم موسى عليه السلام، فإنه مشتق من اللغة المصرية القديمة... وقد ألزم موسى ـ بحكم مصريته ـ اليهود باعتناق عادة الختان... وثمة مظهر آخر... وهو تحريم تناول لحم الخنزير لاتصال ذلك بأسطورة تقول بأن رب الشر (ست) قد تنكر في شكل خنزير وهاجم الرب (حور). ولكن

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٣) المرجع نفسه ص ٧١.

اليهود بعد خروجهم من مصر بقيادة موسى قد ارتدوا عن الوحدانية. . . »[1].

والقول بتوحيد أخناتون هو أخطر ما اقتبسه طعيمة، فهو يقول:

«وليس أدل على صحة نظرية ديانة أتون على التوحيد اليهودي. . . ويعزو فرويد ارتداد اليهود عن الوحدانية»[2].

ولا بد، وقد رأينا الاستشهاد بفرويد، أن نتنبه إلى شيء خطير في هذا الاستشهاد:

إن فرويد يهودي، وأذاع بين الناس رأيه في موسى، فتبعه من تبعه في الأخذ برأيه، والترويج له، والدفاع عنه، وتحمّل فرويد هجمات اليهود أمثاله.

وقد تبدو القضية طبيعية، ولكن علينا أن نستفيد من التاريخ، ونتعلم من تجاربه، فاليهود كالزئبق، يتحولون من جهة إلى أخرى، كلما مال عموده، أو مسباره. فهم في هذا العصر شيوعيون، واشتراكيون، ورأسماليون. . . إلخ. إنهم ينخرطون في كل سلك، ويقتفون كل دعوة. لكن الحذر الحذر، ففرويد أشاع فكرته، ليتلقاها غير اليهود، فيصدِّقوا بها، ويؤمنوا

---

(١) التاريخ اليهودي العام، ص ص ٨٢ ــ ٨٧. وانظر بقية الكتاب.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٦.

بحقيقتها، ويتخاصموا حولها؛ أما اليهود، فهم محصَّنون منها، غير مكترثين بها، أو عابئين لها. إذن، فقد وصلت الرسالة الأولى التي يحلم اليهود بإيصالها؛ إنها إفساد تفكير الشعوب، وتشويه معقداتهم، وزعزعتهم عن مبادئهم، لا سيما أصحاب الديانتين: المسيحية والإسلامية.

إن ما نقوله عن فرويد ليس تحاملاً شخصياً، فهذه أمور أصبحت مقررة عنه. يقول رمضان في كشف عن شخصية فرويد، نقلاً عن مراجع غربية موثقة عنه:

«كان فرويد رغم الحاده نشطاً في منظمة بناي بريث الصهيونية في فيينا طيلة ٤١ عاماً حتى حلها هتلر عام ١٩٣٨. وكان ينسب إلحاده إلى اعتبارات إنسانية ولكنها تقوم أساساً على تعاطفه مع طائفته يشهد بذلك أنه نشر في صحيفة المنظمة عن احتفالها بعيد ميلاده السبعين في محفل فيينا النمسوي الرسالة التالية المؤرخة في ٦ أيار/ مايو ١٩٢٦.

«لا بد لي أن أعترف أن ما يربطني باليهودية ليس الدين ولا حتى الكبرياء الوطنية، فقد ظللت دائماً غير مؤمن، وشببت دائماً بدون دين ولكن دون استخفاف بما يسمى بالمقتضيات «الأخلاقية» للحضارة الإنسانية... ومع ذلك بقي عندي دائماً ما يكفي لأن أعجز عن مقاومة جاذبية اليهودية واليهود، ولأن تظل كثيرات من القوى العاطفية تزداد قوة بازدياد عجزي عن التعبير عنها بالكلمات، فضلاً عن الوعي الواضح بالهوية الداخلية

والإدراك بتشابه التركيب النفسي».

هذا اعتراف أقرب إلى ما ذكره الفيلسوف اليعازر: «أن تكون يهودياً ليس معناه «أنني أؤمن بهذا أو ذاك» وإنما معناه «ها أنذا» فهناك عناصر في الهوية اليهودية تحدد اليهودي رغماً عن أنفه». وهذه الجبرية المادية المأثورة عن فرويد تذكرنا بقول هاري وولفسون أستاذ الفلسفة أن اليهود «لم يعودوا تراثاً دائماً بل مجوعة من الخصائص المتوارثة»[1]. أي في رأينا هي الأفكار السوداوية التي يحملها اليهود.

نشيد أخناتون

وليس من شأننا الخوض في حقيقة توحيد أخناتون، بيد أن أمامنا نصين، يمكن الحكم من خلالهما على نوع ذلك التوحيد.

يورد سهيل ديب النص الأول، مع مقدمة له من عنده، كالآتي:

«كان الفرعون الموحد مسالماً كما أوحت له عقيدته الجديدة، فأخذت مملكته تتقلص شيئاً فشيئاً لابتعاده عن العنف والحرب، بينما كان يحاول إقناع حكام أمصار ملكه الشاسع باعتناق الدين الجديد، وقد وجدت مراسلات عديدة في تل العمرنة تشير إلى هذه المحاولات إلى جانب الاستغاثات المتتالية من حكام ولايات سورية وما بين النهرين، وقد وجد ما يقابل هذه المراسلات في رأس الشمرا (أوغاريت) شمال سورية.

تصوف الفرعون المسالم المتدين جعل منه شاعراً يؤلف القصائد تمجيداً لإلٰهه الجديد الذي كان يتمثل بالشمس، وقد

---

(١) إسرائيل ومصير الإنسان المعاصر، ص ٨٧.

وجد بين آثار تل العمرنة هذا النشيد الجميل من تأليف أخناتون شخصياً:

ظهورك في أفق السماء جميل
يا أتون يا رمز الحياة
العالم في ظلمة كأنها الموت
تخرج الأشبال من أوكارها
عندما تشرق في الأفق وينبلج الفجر
يخرج الناس في العالم أجمع إلى أعمالهم
إذ تملأ البلدان بضيائك
إن كنت بعيداً فإن نورك يبقى على الأرض
أو كنت مرتفعاً فإن آثار أقدامك هي النهار
وعندما ترسل نورك
تحتفل مصر بعيدك
وقد استفاقت ووقفت على قدميها
يغسل الناس أقدامهم ويلبسون ثيابهم
وبأياديهم المرتفعة يمجدون فجرك
تفرح المواشي بكلئها وتزدهر الأشجار والمزروعات
تطير العصافير من مستنقعاتها وترتفع أجنحتها تمجيداً لك
ترقص الخرفان على قوائمها.
وتنتفض المخلوقات المجنحة كلها
وهي تحيا عندما تسطع أشعتك عليها

السفن تصعد وتنزل على النهر الكبير
وتتراقص الأسماك نحوك
ما أعظم أعمالك (يا رب)
صنعت الأرض حسب مشيئتك وملأتها بكل ما فيها
أنت خلقت الجنين في رحم المرأة
أنت أعطيت الحياة للأولاد من بطون أمهاتهم
وسهرت عليهم كي لا يبكوا
أنت المرضعة حتى في البطون.
عندما يصرخ الطير وهو في بيضته
تعطيه أنت الروح ليبقى على قيد الحياة
هوذا يخرج من البيضة يصرخ بكل قواه
عديدة هي أعمالك (يا رب)
وعظيمة هي أفعالك يا سيد الأزل السرمدي
أنت الحياة نفسها، وفيك تحيا الحياة.
أنت صنعت الفصول
وخلقت السموات لكي تصعد إليها
وتظهر عند الفجر يملؤك النور ثم يعود على البشر
يحدث أنهاراً في أعالي الجبال ويسقي المروج
النهر السماوي للجميع وللماشية في كل البلدان.
الجميع بين يديك كما خلقتهم.
تستفيق فيستفيقون

ويموتون عندما تغيب
ولأجلك يعيش البشر»[1].

نشيد داؤد (أي المنسوب إليه)

أما النص الثاني، فيورده بمقدمة قصيرة ثم تتلوه خاتمة قصيرة أيضاً، كالتالي:

«يذكرنا هذا النشيد الجميل بقصائد المتصوفين المعاصرين، لكن دهشتنا ستكون ولا ريب كبيرة إذا قرأناإلى جانبه القصيدة التالية:

أيها الربُّ إلٰهي لقد عظمت جداً. جلالاً وبهاءً لَبِسْتَ
أنتَ الملتحفُ بالنورِ كرداءٍ الباسطُ السماءَ كسجفٍ
المُسَقِّفُ بالمياهِ علاليَّهُ الجاعلُ السحابَ مركبةً له السائرُ على أجنحةِ الريح...
كسوتَها الغَمْرَ لِباساً
على الجبالِ تقفُ المياهُ...
أنتَ مُفَجِّرُ العيونِ في الشعابِ فتَسيحُ بين الجبالِ
تسقي جميعَ وحوشِ الصحراءِ وبها تطفىءُ الفراءُ ظَمَأَهَا...
أنت المنبتُ كلأً للبهائِمِ وخَضِراً لخدمةِ البشرِ لاخراجِ خبزٍ من الأرض...

---

(١) التوراة بين الوثنية والتوحيد، ص ص ٥٥ ــ ٥٧.

[redacted]

هناكَ تُعَشِّشُ العصافيرُ ولِلَّقْلقِ بيتٌ في السروِ...
صَنعَ القَمَرَ للأوقات والشمسُ عرفتْ غروبَها
تجعلُ ظلمةً فيكونُ ليلٌ وفيه تدبُّ جميعُ وحوشُ الغابِ...
تُشْرِقُ الشّمسُ فتنحازُ وفي مآويها تَربِضُ
يخرج الإنسانُ إلى عملِهِ وإلى خدمتِهِ حتى المساءِ
ما أعظمَ أعمالَكَ يا ربُّ لقد صنعتَ جميعَهَا بالحكمةِ فامتلأت الأرضُ من مُقْتَنَاكَ.
هذا البحرُ العظيم الواسعُ الأطرافِ، هناكَ دبّاباتٌ لا عدَدَ لها حيواناتٌ صغارٌ مع كبارٍ.
هناك تجري السُّفُنُ، لِوَيَاتَانُ هذا جبلْتَهُ لتلاعِبَهُ(١).
الجميعُ يرجونكَ لترزِقَهُمْ أُكُلَهُمْ في أوانِهِ.
تَرْزُقُهُمْ فيلتقطون تبسُطُ يَدَكَ فَيَشْبَعُونَ خيراً.
تَحْجُبُ وَجْهَكَ فَيَفْزَعُونَ...
تُرْسِلُ رُوحَكَ فَيُخْلَقُونَ وَتُجَدِّدُ وَجهَ الأرضِ...

---

(١) لوياتان بالأجنبية *(Leviathan)* حيوان بري أسطوري ضخم، وهو رمز للمياه المتمردة التي يحاربها يهوه إلى جانب قوى الشر الأخرى، والاسم مأخوذ من أساطير الكنعانين، كذلك فإن بعض أوصاف يهوه في هذا المزمور وغيره منقولة من أوصاف الإله «بعل» إله الكنعانيين في أوغاريت (رأس الشمس) مثل مراكب السحب في السطر الثالث أعلاه المزمور.
التوراة بين الوثنية والتوحيد، ص ٥٩.

هذان النصان، وكأن ثانيهما تحريف ركيك متفكك عن الأول، يكفيان بالواقع لتأكيد الرباط الوثيق بين مؤلفيهما: الأول أخناتون، الفرعون المتأجج إيماناً بدينه الجديد، والثاني مؤلف مجهول الهوية، لكن قصيدته أشهر من نار على علم، وهي المزمور ١٠٣ ك (١٠٤ ب) من العهد القديم، وبلاغة الشيخ إبراهيم اليازجي لم تستطع أن تحسن فيه شيئاً. والظاهر هو أن شخصاً ما حفظ النشيد الأخناتوني لفترة من الزمن ثم حاول إعادة كتابته، لإعجابه به، بلغة جديدة وبشروط دينية جديدة لها طقوسها واستعاراتها الخاصة، فلم تسعفه شاعريته كثيراً»[1].

رد وتعليق

إن لنا موقفاً واضحاً من النشيد الثاني سواء كان مزموراً أو غناء، فمزامير داود، ليست هي هذه المزامير المدونة في التوراة، إنها اختراعات كهنة اليهود وأحبارهم، أما المزامير الأصلية، فمفقودة، كما فُقدت التوراة الأصلية، والجلي أن مضمون المزمور السابق مضمون توحيدي، بلغ من الشفافية ورهافة الحس مستوى راقياً، ولكن هذه الشفافية والرهافة جاءته من بلاغة إبراهيم اليازجي، مع ملاحظة الحس المسيحي فيه:

«ترسل روحك...».

ولا يخطىء الناظر في النشيد الأول أن يدرك أن مضمونه

(١) المرجع نفسه، ص ص ٥٧ ـ ٥٩.

وثني صرف، إنه توجه للآلهة الشمس، وكانت الشمس من المعبودات القديمة في مصر، وفي سبأ وفي غيرهما، فكيف أصبح أخناتون موحِّداً؟ ألأنه خاطب الشمس وحدها، ولم يخاطب سواها إلى جانبها؟

فإذا كان هذا توحيداً، فأين منه توحيد إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان عليهم السلام ومحمد ﷺ؟

شريعة موسى وشريعة حمورابي

من البديهي جداً أن يعزو من اتخذ المنهج السابق سبيلاً للبحث والدراسة، كل أثر ديني إلى ما كان معروفاً من ثقافات بدائية وثنية، وأن يحاول الجمع بينهما، مهما اختلفت مصادر تلقيهما، ومهما ظهرت بينهما من فجوات لا يمكن ترميمها إلا بالتقاط المعلومات من كل حَدْب وصوب، وسواء أكانت أثراً تاريخياً، أو حكاية من حكايات المسامرات؛ ولهذا نجد سوسة يقدّم لهذه المقارنة بين الشريعتين: الموسوية والحمورابية بقوله:

«شريعة حمورابي وشريعة التوراة

تستقي الشرائع أحكامها عادة من البيئة الجغرافية ومن ظروف المجتمع السياسية والدينية والمعاشية بحيث تنسجم مع نمط حياة السكان ومشاكلهم، ولا بد من أن تتأثر هذه الشرائع بعض الشيء بالشرائع التي سبقتها في مختلف المجتمعات وفي التقاليد المرعية وفي العرف المحلي في مجرى تطورها ونموها.

ولا أدل على ذلك مما هو واضح في الشريعتين شريعة حمورابي وشريعة التوراة. فهناك تشابه كلي في بعض مواد الشريعتين في حين أن هناك مواد أخرى تختلف في أحكامها بين الاثنتين ومواد أخرى موجودة في الواحدة دون الأخرى، وهذا الاختلاف ناجم كما ذكرنا عن اختلاف البيئة واختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والدينية والمعاشية في كل من البلدين الذين وضعت فيهما الشريعتان، غير أنه لا بد من الاعتراف بأن التشابه بين الشريعتين لا بد أن يكون معظمه مقتبساً من أقدمهما، أي أن المتشابه الوارد في التوراة يكون مقتبساً من شريعة حمورابي التي سبقت شريعة التوراة بأكثر من خمسمائة عام، هذا إذا أخذنا بالتاريخ الذي ظهر فيه موسى في زمن الخروج بغض النظر عن التاريخ الذي دونت فيه التوراة في وقت لاحق أي بعد تدوين شريعة حمورابي بثلثمائة وألف عام»[١].

ويعدّد سوسة التشابهات بين الشريعتين في مثل:

١ ــ أحكام العين بالعين والسن بالسن[٢].

٢ ــ انتهاك حرمة الأبوين[٣].



(١) العرب واليهود، ص ص ٣٦٧ ــ ٣٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧١.

٣ ــ الزنى والاغتصاب[١].

٤ ــ السرقة والنهب[٢].

٥ ــ اتهام امرأة أو فتاة بالفحشاء بغير إثبات[٣].

٦ ــ الاتهام الكاذب والشهادة الكاذبة[٤].

٧ ــ السحر وتعاطيه[٥].

٨ ــ تعدد الزوجات[٦].

وقد لا يختلف ما قاله الفاروقي عما قاله سوسة، فهو يقول:

«إن الشريعة التي جاء بها موسى، أو بالأحرى التي نسبت إلى موسى لم تختلف في الجوهر عن القوانين القبلية التي كان الساميّون يقيمونها في ذلك العهد، وإن اختلفت عنها اطلاقاً فهي تختلف من حيث الأحكام العنصرية فقط، وأية مقارنة بين هذه الأحكام وأحكام لوحات رأس شمرا أو تل الحريري تكشف هذه الحقيقة»[٧].

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٧٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٧٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٧٦.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) المرجع نفسه، ص ٣٧٧.

(٦) المرجع نفسه، ص ٣٨١.

(٧) أصول الصهيونية، ص ٣٩، وانظر ص ٧١.

والأسوأ منهما ما قاله سعفان:

«ولا يضير أن يكون هناك شبه بين ما جاءت به التوراة وبين تشريع حمورابي المكون من ٢٨٢ بنداً، وإن كان شبهاً يتناول اللحمة والسدى واللب والجوهر، لأن حمورابي ليس أول من شرع»، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾[1] [فاطر: ٢٤].

رد وتعليق

لن نستشهد هنا بآيات من الذكر الحكيم، فمن الثابت أن كل هذه التشريعات توافق التشريع الإسلامي، الذي لم يأت لينقض ما جاء في التوراة والإنجيل، وإنما جاء مكمّلاً للدينين السماويين السابقين، ومصحِّحاً للالتباسات التي أقحم فيها أحبار اليهود ورهبان النصارى توُهماتِهم وتفسيراتِهم المشبوهة، وإضافاتِهم لما لم يُنزل به الله على أنبيائهم حكماً وسلطاناً.

ألا يكفي أن نذكّر هؤلاء بقوله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن

(١) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ٩٠، وانظر ص ص ٩٤ ــ ١١١.

تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: ٤٥].

ومع هذا، فإن تأثيرات سوسة الخطيرة على الأذهان استطاعت أن تغري كاتباً قدّم كِتاباً جليلاً قيماً عن التوراة، فقال تعليقاً على تلك الشرائع:

«قد يقول البعض أن الإسلام يقر هذا القانون»(١).

ثم يحاول التعقيب على هذا الحذر والاحتياط من جانب الآخرين، فيقول:

«ولكن يجب الوضع في الاعتبار أن الإسلام يبيح الصفح... الشيء الذي لم تفعله التوراة المنسوبة إلى موسى... ولا قانون حمورابي»(٢).

وعلى الرغم من محاولته إيجاد مخرج في التفريق بين شريعة حمورابي والشريعة المنسوبة إلى موسى، كما يقول، إلا أنه ينسى فعله هذا، ليعود فيوفق بينها جميعاً، بل يتجاوز هذا إلى جعل موسى عليه السلام، يتلقى شريعته من «يهوه» إلٰه إسرائيل، فهو ينقل عنه رأياً يقول فيه:

«ومن الجدير بالذكر أن نذكر قول الأستاذ العلامة مسلم حسن: وكان كل من حمورابي وموسى يتلقى قوانينه من ربه... فكان الأول يتلقاها من «شمس» (إله الشمس)... والثاني من «يهوه» إله إسرائيل»(٣).

---

(١) بدران، التوراة: العقل... والعلم... التاريخ، ص ٢٠٢.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

ثم يضيف:

«والعجيب في الأمر ذلك التوافق العجيب بين أوامر الإلٰهين»[١].

وبعد ذلك يستشهد بقول الله تعالى[٢]:

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

ونجد تكراراً للمقولات السالفة في حادثة الخروج في مزاعم الفاروقي، حتى إنه يبدو متذبذباً في الأخذ ببعض الجزئيات في سيرة موسى عليه السلام، فهو يقول:

«تمثلت العنصرية رحلة موسى الأولى إلى سيناء وزواجه من صفورة، ابنة يثروب كاهن مدين وشيخها، لا كأنها رحلة استكشافية، غايتها التقرب من أهل مدين والتشاور معهم حول خروج العبريين المنتظر والتحضير له، بل تربطها ربطاً سببياً بقتل موسى ناظراً مصرياً... ثم تدّعي أنه هرب إلى مدين خشية من الجزاء القانوني لجريمته»[٣].

ثم يقول:

«والقضية ليست عما إذا قتل موسى بالفعل أو لم يقتل. لقد قال لنا

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ص ٣٦ ـ ٣٧.

القرآن الكريم أنه قتل ثم استغفر فغفر له»[1].

وبعد ذلك يستنتج:

«كيف تتمثل العنصرية هذا الحدث، وهي بنسبتها سفر موسى إلى هذا السبب غير الخلقي، تؤكد أن لا أخلاقية البتة لكل هذا التاريخ الذي تسرده»[2].

فماذا نقول نحن والقرآن الكريم ـ كما اعترف ـ يثبت ذلك، وبالطريقة التي يشرحها لنا؟ ألا يمكننا أن نجد العنصرية في غير هذه المواضع؟ أليس من حق العلم أن يتثبت المرء، فلا يغفل عما يتعارض مع ما يورده الكاتب نفسه؟

وإذا جازت علينا الغفلة ـــ كما هي جائزة حتى الآن ـــ فنقرأ كتاب فاروقي واثقين من علمه وعدالته، حتى ليجوز هذا على وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة الأردنية الهاشمية سابقاً، فيقدِّم له بمقدمة تجعله مجاهداً اغتالته الصهيونية، وضع رسالة للشباب العربي المسلم، فكيف يسمح العقل الذي يؤمن بالقرآن الكريم أن يتقبل منه قوله:

«إن اليهود لا سيما داوود وكهنته وعزرا ورجاله حرفوها وزاغوا بها عن أهدافها الإلٰهية ومراميها الأخلاقية العالمية فجعلوا منها كتاباً تعصبياً عنصرياً، حتى اسم الإلٰه بدل، فبدل أن يدعى

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٢) المرجع نفسه.

باسم الحق وهو إلٰه العالمين ورب البشر، جعلته العنصرية اليهودية «إلٰه إبراهيم ويعقوب وإسرائيل» فحسب»[(١)].

رحم الله فاروقي، فربما أراد خيراً، ولكنه جانب الصواب، ونسي أن هذا التعبير الأخير جاء مثله في القرآن الكريم في خطابه ﷺ:

﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وها نحن نجد هذه النتيجة تثبت أن مصطلح اليهودية كان معروفاً قبل موسى، أي منسوبة إلى السبط الرابع من أسباط اليهود: يهوذا، فلماذا لم تكن اليهودية معروفة، وهي دين جاء به موسى، يجدّده ويدعو له، وكانت التوراة باعتراف الديانتين: المسيحية والإسلامية، هي كتاب اليهود؟

وفيما ينكر أولئك الكتاب اليهودية دون فصل بين اليهودية، اسماً دالاً على الديانة اليهودية، كما جاءت في شريعة موسى عليه السلام واليهودية على أنها اسم خال من المضامين الدينية السامية التي جاء الإسلام تصحيحاً لفسادها، وتكميلاً لأولاها، نجد خللاً فاحشاً في التعبير حين نسمع **إسماعيل الفاروقي**، يقول:

«كانت التوراة مجموعة أحكام اشترعها موسى لقومه في صحراء سيناء أثر خروج العبريين من مصر. ومع أن نسبتها إلى موسى تنطوي على شيء من الحق، يجب علينا أن لا ننسى، أن

---

(١) المرجع نفسه، ص ٩٥.

تعديلات وتحريفات كثيرة أدخلت على شريعة موسى في فلسطين»[1].

إن عنوان الكتاب هو: «أصول الصهيونية في الدين اليهودي»، واليهودية الموسوية ليست عنصرية حسب الفهم الذي تلقناه عن توراة اليهود المحرفة، هذا أولاً، أما ثانياً، فربما خان فاروقي التعبير حين زعم: «التوراة... اشترعها موسى..»، لأن التوراة التي جاء بها موسى موحاة من الله تعالى، ولم يصنعها موسى نفسه، إنه رسول وناقل كلمة الوحي فقط، ولكن فاروقي يخطىء حين يقول:

«وعلى فرض أن الدين العبري هو نفسه ما اشترعه موسى في سيناء فالصهيونية في الدين العبري، تعني الصهيونية في توراة موسى، أي في التوراة كما كانت في السنين التالية للخروج من مصر عام ١٢٨٠ ق. م»[2].

وتبلغ الحماسة بعبد الوهاب زيتون إلى إيجاد مصطلحين: «اليهودية» و «الموسوية»، يقول:

«إن اليهودية هي غير الموسوية، وإنها وجدت قبل موسى النبي عليه السلام وإنها كانت تعني بالنسبة لموسى الكفر

(١) المرجع نفسه، ص ٩.
(٢) المرجع نفسه.

والعدوان، وكانت رسالته عليه السلام في الخلاص منها تماماً»[1].

الدين:

طفحت كتابات الكُتّاب المحدثين بالهجوم الشديد على معتقدات اليهود، فسالت أقلامهم مداداً كثيفاً عن تقاليدهم الدينية وممارساتهم الشعائرية، حتى أدى ذلك الهجوم، وهذا الفيض، إلى عدم التفرقة بين اليهودية، الدين السماوي واليهودية الوضعية.

وسنقتصر هنا على ما دبّجه العفتان في كتابه **«حقيقة اليهود»**، ففيه يطرح السؤال التالي:

«ما هي اليهودية؟ وماذا تطلب من معتنقيها؟»[2] ثم يجيب:

«القول بأن اليهودية هي أحد الأديان السماوية الثلاثة ومن ثم التسليم بأن اليهود هم أتباع دين سماوي خطأ فادح تنقضه الحقائق التاريخية للأديان السماوية المنزلة»[3].

وبعد هذا يصل إلى النتيجتين التاليتين:

«ما كان لكلمة يهودي أو يهودية أي مدلول سياسي أو ديني

---

(١) الأصولية في اليهودية، ص ٢٤، وانظر ص ٣٣، ولكن زيتون يلقي هذه التفرقة بعد ذلك، انظر ص ٣٠.

(٢) حقيقة اليهود، ص ١٦.

(٣) المرجع نفسه.

حتى عام ٩٢٢ قبل الميلاد عندما قامت في جزء صغير من فلسطين دويلة هزيلة أطلقت على نفسها اسم دولة يهودا»[١]. «إن اليهودية ديانة مفتراة وضعت لمآرب أنانية تدميرية»[٢].

وعلى الرغم من هذا القطع والتحديد، فإن العفتان مثله، مثل كثيرين غيره ممن نقل عنهم، لا سيما سوسة، أو راحوا ينقلون عنه، يقول:

«وخلال ما يزيد على خمسمائة سنة منذ خروج بني إسرائيل من مصر إلى سقوط دولة داوود وسليمان عليهما السلام، كان استخدام هذه الكلمة منحصراً في الدلالة على سبط يهودا وهو السبط الرابع من أسباط بني إسرائيل وهي دلالة قبلية صرفة»[٣].

وها نحن نجد هذه النتيجة تثبت أن مصطلح اليهودية كان معروفاً قبل موسى، أي نسبة إلى السبط الرابع من أسباط اليهود يهوذا، فلماذا لم تكن اليهودية معروفة، وهي دين جاء به موسى، يجدّده ويدعو له، وكانت التوراة باعتراف الديانتين: المسيحية والإسلامية، هي كتاب اليهود؟

زمن ما قبل موسى

يحدثنا القرآن الكريم عن موسى، فيقول:

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٣، وانظر ص ص ١٧ ـ ١٨.

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ ﴾ [آل عمران: ٢ ـ ٤].

وقال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٤ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد وردت كلمة (التوراة) في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة.

والتوراة نزلت على موسى وهي الكتاب الذي يعتمده اليهود، ويرون أنه كتابهم، فهؤلاء يهود، قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٣٥ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ

فَٱحْذَرُوا۟ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)﴾ [المائدة: ٤١].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٤٤)﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٦)﴾ [الجمعة: ٦].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)﴾ [النساء: ١٦٠].

وخاطبهم الله بقوله:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٦)﴾ [الجمعة: ٦].

ومن هذا المصطلح كان إطلاق النسبة (يهود) على الذين آمنوا واتّبعوا الهدى منهم، وهم أولئك الذين كانوا على دين إبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ [البقرة: ١٤١].

الختـان:

لم يقتصر تجاوز الكُتّاب المحدثين، ممن اتبع ذلك النهج، واتخذ ذلك الطريق، على الحقائق الثابتة في القرآن الكريم، بل امتـدت أيـدي بعضهـم منجـرفيـن مـع حمـاستهـم إلـى الشعـائـر الإسلامية أيضاً، واستقصاء هذه الأمور، سيجعلنا نملأ صفحات إضافية أخرى، قد تغني الإشارة إلى إحداها عن سواها. يقول **بارودي**، عن شعيرة الختان:

«وحتى الختان، الذي يعده اليهود من مفاخرهم، وأساساً من أسس عقيدتهم فقد أخذوه عن المصريين، الذين كانوا قد مارسوه قبلهم بأكثر من ألف وثلاثمائة عام، على الأقل، إذ وجدت آثاره في مومياتهم، وفي النقوش والرسوم التي خلفوها فـي قبـورهـم ومعـابـدهـم، لقـد كـان الختـان معـروفـاً أيضـاً عنـد الكنعانيين، قبل أن يسمع به اليهود، أو يعملوا به، إلا أن اليهود جعلوا من الختان علاقة العهد بين الرب وبين إبراهيم، كما جعلوا الإعدام عقوبة من لا يختتن، لأنه يكون قد أنكر بذلك العهد»(١).

ويرى **فاروقي** أن في شعيرة الختان: «معاني العنصرية»..

---

(١) اليهود العالمية، ص ٨٤. وانظر الرأي نفسه في، سعفان، دراسة في التوراة والإنجيل، ص ٤٩. وانظر مثلاً عن هذه الممارسات الوثنية في «الدم المقدس عند العرب».

فاليهودي لا يقدم روحه فدية للاختتان فحسب بل فدية المختارية التي ركزها في الاختتان»[1].

رد وتعليق

إن الربط بين شعيرة الختان وإبراهيم عليه السلام، ليس خاصاً باليهود، بل هو جزء من أساسيات المولود المسلم، أو المتحول إلى الإسلام، والنبش عن ماض سحيق لمثل هذه الممارسة، كإعادة كل قصص القرآن الموافقة للتوراة إلى أساطير غابرة، وهلم جرا... هو المنزلق بعينه. ولا شك أن في كلام فاروقي خلطاً فاضحاً بين الممارسات الوثنية المتوجهة للآلهة، والممارسات الدينية بناء على أوامر الله.

(١) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ٣٠.

الفصل الرابع

الفرية على
داؤد وسليمان عليهما السلام

طالوت (شاول)

يقول ظاظا:

«كان داود قد ألحق ببلاط شاءول، وفي هذه الآونة كان سكان البلاد الأصليون «الفلسطينيون» يريدون التخلص من الوجود «العبري» في بلادهم، وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين الإسرائيليين وبرز من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو «جالوت» استطاع داود أن يقتله بحجر أطلقه من مقلاع، ثم قطع رأسه بعد ذلك، وأخذها ليفخر بانتصاره في الجنوب، ومر بها على أورشليم، ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود في الاتساع حتى بات الملك شاءول يحقد عليه ويدبر الأمر لاغتياله دون جدوى وأخيراً تعرض شاءول لهزائم ساحقة ومتعددة من «الفلسطينيين» انتهت بأن انتحر على أحد الجبال على أثر معركة فاشلة، وأصبح داود بعده ملكاً. فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توسطاً من حيث الموقع، فوجد مطلبه هذا في «مدينة اليبوسيين» أورشليم، فهي قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود، وهي وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة، ثم إنها بعد كل هذا في

وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنهم كانوا أكثر ميلاً إلى المسالمة من أهل الشمال»[1].

ويقول سعفان:

«وكان أن توجوا الملك شاءول حوالي ١٠٢٠/ ١٠٠٤ق.م الذي كان معروفاً بالقوة والبأس، لكنه لم ينجح في مهمته، وقتل هو وأولاده، وقطع رأسه، وعلقوه مع أبنائه في بيسان، وأودعوا درعه وسلاحه قرباناً في معبد الآلهة عشتاروت»[2].

ويأتي العفتان، ليقول عن قيادة شاول لليهود:

«وقد نهض الملك شاؤول فحصل على مؤارزة العدد القليل منهم فحقق نصراً حاسماً. وأكثر من ذلك أنه قتل بسبب خذلان الإسرائيليين له ونكوصهم عنه».

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بالآية التالية:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا

---

(١) ظاظا، القدس ص ١٧، وانظر الشيء نفسه لدى النجار، أرض الميعاد، ص ١٦٢.

(٢) اليهود، تاريخ وعقيدة، ص ١٧.

ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩][1].

أما الفاروقي، فيقول عن داود:

«خشي الملك شاؤول من منافسته فطارده»[2].

«جالوت هو القائد الفلسطيني الذي قتله داود»[3].

ويقول محمد بن مهنا العلي:

«كان مقتل جالوت على يد داود.. بداية النهاية لطالوت حيث كبر داود في أعين الناس وقلوبهم، مما جعل طالوت يخافه ويخشاه فعمد إلى مضايقته، ويقال إنه حاول قتله»[4].

رد وتعليق

واضح من حديث سعفان أنه منقول عن التوراة التي بين أيدينا الآن، وهو حديث أنزل طالوت منزلة لا تليق بالأنبياء المكرمين عند الله، وقد نص القرآن الكريم على أن طالوت نبي، أما حديث العفتان واستشهاده بآي من الذكر الحكيم، فهو الالتباس بعينه؛ إنه ينقل ما تروّجه التوراة عن الأنبياء، كما فعل

---

(١) حقيقة اليهود، ص ٧٩.

(٢) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ٤٦.

(٣) صراعنا مع اليهود بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية، ص ٧١.

(٤) المرجع نفسه. وانظر كذلك: ناجي، المفسدون في الأرض، ص ص ٤٣ ـ ٤٥.

سعفان، ثم يورد القرآن حجة، وليس في الآيات التي ذكرها ما يدل على أن طالوت مات مقتولاً، حقاً نال طالوت النصر بفضل الله ثم وقوف القِلَّة المؤمنة معه، وهذه القلة المؤمنة لا تستحق الطعن فيها، فالقرآن الكريم يذكرها ممتدِحاً إياها بالصبر وقوة الإيمان.

أما التناقض في نقل الأخبار، لأنها لا تستند أصلاً إلى موثّقات علمية، فهو أن هناك من يقول:

«لقد بلغ من شدة مقاومة الفلسطينيين لبني إسرائيل أن الملك شاؤول وأولاده الثلاثة كانوا قد قتلوا في إحدى المعارك معهم»[1].

فهنا نجد شاؤول مات مقتولاً في المعارك، والمهم في الأمر أن هذا ادعاء، وما سبقه كان ادعاء أيضاً، ولا برهان عليه.

وفي التعبير السابق أيضاً ما يجب التحرّز في إطلاقه، فشاول لم يقاتل الفلسطينيين، إن كان قاتلهم قط، وإنما قاتل جالوت وقومه، وهذا تعبير نجده أيضاً لدى **ابن الشريف**، الذي يقول:

«إسرائيل كانوا في الزمن الذي بعث فيه صموئيل نبياً ملهماً

---

(١) بارودي، اليهودية العالمية، ص ١٠٩. الكاتب نصراني، وأوردنا رأيه لنبين للقارىء أن العرب نصارى ومسلمين يثبتون في الأذهان ما هو ضد قضيتهم، إن وطنياً، وإن دينياً.

قد انحرفوا عن شريعة موسى، ونسوها، فعبدوا من دون الله آلهة أخرى، فضعفت رابطتهم الملّيّة، وسلّط الله عليهم الفلسطينيين فحاربوهم حتى أثخنوهم فانكسروا، وسقط منهم ثلاثون ألف مقاتل، وأخذ تابوت العهد منهم، وكان بنو إسرائيل يستفتحون (أي يستنصرون ويطلبون الفتح) به على أعدائهم، فلما أخذه الفلسطينيون انكسرت قلوب بني إسرائيل ولم تنهض همتهم لاسترداده، وكانوا. . . .»[(١)].

لقد أقحم الفلسطينيون في هذا القتال، فكيف يكونون أصحاب الأرض، وأهلها يحكمهم الآن بنو إسرائيل، أي إن الأرض الفلسطينية، تضم الشعبين كليهما: اليهودي والفلسطيني، ثم يخرج طالوت بجنوده ليعبر النهر إليهم، ألا يعني ذلك أن طالوت عبر النهر إلى أمة أخرى غير الشعب الفلسطيني؟ وسواء كان هذا حقاً أم كذباً، فمن أين علمنا أن جالوت وقومه هم الفلسطينيون؟ ألم نستق هذا الخبر من التوراة المحرّفة؟ وإذا كان مصدرنا التوراة المحرفة، ألم يكن حريّاً بنا ألا نردِّد خبثها الدفين، الذي يُراد منه محو الفلسطينيين، وإحلال اليهود محلهم، ضمن خطة جهنمية شيطانية مدروسة من قديم الأزمان؟

إننا إذا أردنا الحقيقة، فلن نجدها إلا في القرآن الكريم،

---

(١) الشعب الملعون في القرآن، ص ٦٨.

فهو المصدر الربّاني الموثوق، الذي لم تتدخل النزعات البشرية في تسفيهه أو تأليفه، يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ
ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ
أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ
لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ
وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ
وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ
وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ
غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾
فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ

وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١].

وعلينا أن نهتدي بعد ذلك بالسنة المطهرة.

أما فيما يخص ذكر التابوت، فيقول سعفان في تعليقه عن التابوت في عهد موسى:

«إن التابوت لا يزيد على صندوق، يوضع فيه لوحا الشهادة (الشريعة) وقاية لهما، وكان بوسع (الرب) أن يؤكد صيانة اللوحين، وعلى شعبه المختار أن يختار الطريقة التي تتناسب مع ظروف حياتهم، كأن تحفظ التعاليم في الصدور وترتل، أو تكتب نسخ منها...»[1].

وفي خطأ هذا نقول:

إن هذا أمر إلٰهي، لا نعلمه، وإن كنا نعلم أن اليهود دائمو التحريف والتبديل، فهم لم يصدقوا رسولهم، ولا بد من برهان مادي يؤكد صدقه، وحفظ الألواح ـ وليس اللوحين ـ كان يتطلب صيانة. وظاهر الآية: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. إن هذا التابوت هو التابوت الذي كان على عهد موسى وهارون، وإن الله رفعه حتى هذا اليوم.

(١) دارسة في التوراة والأنجيل، ص ٦٥.

داود

لم ينل داود ما نال موسى أو سليمان، من تعديات واختراقات لأبسط قواعد البحث العلمي، والنظر المدرسي، ولكن العقاد هذه المرة يشارك في خطابه الأدبي، فيعرّج على تلك الضروب من الحدس والظن الشائنين، ويقول عن مزامير داود:

«وأياً كان مصدر هذه المزامير المتشابهة فالواقع المقرر أن أخناتون سبق داود بأكثر من ثلاثة قرون، وأن العبريين لم ينشئوا هذه المذاهب في الصلوات الدينية قبل شعوب العالم في جوارهم، ولا في غير ذلك الجوار»[(١)].

والأغرب من هذا أن العقاد يجزم بالقول عند المقارنة:

«اتفقت المعاني بينهما اتفاقاً لا ينسب إلى توارد الخواطر والمصادفات»[(٢)].

وعلى هذا يستند عبود، فيقول:

«المشابهة قريبة جداً بين مزامير، وصلوات ذلك الملك الذي تقدم بالدعوة إلى التوحيد في مصر القديمة، أخناتون»[(٣)].

أما الموقف السلبي تماماً، فهو قول سعفان:

«يمكن تصديق ول ديورانت فما هو من المزامير التي صيغت

---

(١) الثقافة العربية، ص ٩٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢.

(٣) اليهود واليهودية والإسلام، ص ٥٢.

على نسق أناشيد أخناتون، إذ أن بعض لفائف البرديات تحوي نصوصاً كاملة من مزامير داود، مدونة باللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفي، وهي تسبق مزامير داود المدونة باللغة والخط العبراني بأكثر من ثلاثمائة عام، ويضم متحف برلين ثلاث صفحات من كتاب أخناتون، مطابقة لمثيلاتها في أسفار التوراة».

ثم قوله:

«كان اليهود يرتلون تسابيح أخناتون في معابدهم، ويتغنون بأناشيده بمصاحبة الموسيقى في مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية».

وبعده:

«ولا ريب في تناقل هذه التسابيح والأناشيد حتى وصلت إلى النبي داود والذي اشتهر بجمال صوته واتقانه عزفه على «القيثار» أحد الآلات الموسيقية الفرعونية المعروفة، وعن طريق إجادة الغناء والعزف كانت نسبة أعمال أخناتون إلى داود»[1].

المهم في الأمر أن هذا هو نوع من أنواع التحدث إلى القارىء العربي المسلم، يتناسى فيه المرء رزانته واتّزانه، فيقع في المحذور، ويتورط في ما لا تحمد عقباه، وكيف بعثرة عالم، وكبوة جواد، وأي كبوة؟ حتى يصل الأمر بالفاروقي إلى أن يقول:

---

(١) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ١٧٠، وانظر ص ١٦٨.

«ولم يكن أحد أمهر من داود وأدهى، وليس أدل على هذا من تصفيته للمنازع الأول لملكه وهو «ايشبوشت بن شاؤول»[1].

ولعل أشد ما قيل في حق داود، استناداً إلى التوراة، ما ردده **نعناعة** في قوله:

«إن داود لم يكن إسرائيلياً بالمعنى الذي تشدد أسفار العهد القديم على توكيده...»[2].

ثم قوله:

«أما داود في شخصه يمثل ذلك المجتمع الكنعاني الإسرائيلي الجديد فواضح من أن جده الأول يهوذا كان حصيلة نسله من علاقته غير الشرعية بكنته ثامار، وهي كنعانية...»[3].

وإذا كان **نعناعة**، قد يبدو معذوراً فيما ذهب إليه، لجواز مثل هذه الأمور عليه، فكيف تجوز على رجل مثل **صابر طعيمة**، الذي قال مثلما قال سلفه:

«إن النبي داود ليس من بني إسرائيل خالصاً وكذلك ابنه سليمان عليهما السلام»[4].

---

(١) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ٤٧. وانظر اللامبالاة في اتهام داود عليه السلام، ص ص ٤٦، ٤٨ ــ ٥٠.

(٢) المشكلة اليهودية، ص ١٩٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٦.

(٤) اليهود بين الدين والتاريخ، ص ٢٠٦.

وقوله:

«إنه يتضح أن الآباء الأول لداود ليسوا إسرائيليين بميراث نقي إنما يجرى في دمه مزيج آخر من دم غير إسرائيلي، يجري دم من قبيلة مؤاب العربية في أعماقه»[1].

وأخيراً، فإن بعضهم يضطرب في الأخذ والنقل، فيقول بالقول وضده في آن واحد، يقول ناجي:

«اشتهر داود بالتقوى، واحترام رجال الدين والعمل بسنن الشريعة..»، ثم يعود إلى ذكر البذخ واكتناز الأموال الطائلة... الخ[2].

ولا يحتمل أحد بعد هذا أن يسمع نقلاً من التوراة كالذي فعله نعناعة، إلا أن يلغي نص القرآن، وتشريفه لأنبياء الله، وتنزيهه لهم عن مثل هذه الافتراءات، التي أخذ بها نعناعة، فوجهها إلى مراميه ليقول:

«امتدت حلقات التمازج بين الإسرائيليين وأهل البلاد الكنعانيين حتى أضحى من المتعذر القول بأن الرعية التي حكمها داود كانت رعية تمثل الحصيلة الناتجة عن التشابك الاجتماعي الذي فرض نفسه وأوشك أن يخلق مجتمعاً جديداً»[3].

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٢٠٧ ــ ٢٠٨.

(٢) المفسدون في الأرض، ص ٤٥.

(٣) المشكلة اليهودية، ص ص ١٩٥ ــ ١٩٦. وانظر بعد ذلك: ص ١٩٧ ــ ١٩٩، ٢٢٤ ــ ٢٢٥.

أما في القرآن الكريم، فداود هو:

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ١٧ ــ ٢٠].

﴿ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

﴿ ۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ: ١٠].

فداود نبي من أنبياء الله، وليس مفكّراً، أو عابد آلهته الشمس موحِّداً بها، إن ما جاء به وحي من عند الله، وليس تقليداً لغيره، ونسقاله:

﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى:

﴿ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

سليمان

يجد القارىء في هذه الاقتباسات، ما يقف أمامها حائراً مدهوشاً، فبعد كل الذي نعلم عمّا جاء في القرآن الكريم عن

سليمان ومملكة سليمان، يأتي من يأتي، فلا يصغي إلى أوصاف القرآن، ولا إلى سيرة سليمان في القرآن، بل نجده يعبث كل العبث بالتاريخ، وبالأديان، فلا يفتح عينه إلا أمام معاول الهدم والشيطان، سائراً في ركاب ما يظنونه حقائق علمية دامغة، ومنجرفاً خلف أسماء اشتغلت في ميادين التنقيب عن الآثار وتحليلات التاريخ، دافعهم في ذلك ما نعلمه وما لا نعلمه، ثم هو يقوم مقام من يرفع راية العروبة والإسلام، للحط من اليهود، وإعلاء شأن العرب والمسلمين، فإذا هو ينتكس انتكاسات لا قائل من عثراتها. يقول سوسة في معرض حديثه عن سليمان:

«أما الوصف الذي جاء في التوراة واعتاد الباحثون ترديده عن اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور. والحقيقة هي أن مملكة سليمان التي تبجح اليهود بعظمتها كانت أشبه بمحمية مصرية مرابطة على حدود مصر قائمة على حراب أسيادها الفراعنة الذين كان أهم ما يهدفون إليه من وراء هذا الإسناد حماية حدودهم الشرقية من غارات الأقوام الطامعة بمصر وفي مقدمتهم الأشوريون، وكان سليمان يريد أن يجاري الفراعنة في البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وإمكاناته الاقتصادية وذلك بإغداقه في إقامة الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة، فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب كما أثقل كاهل خزينته بالديون المتراكمة حتى اضطر أن يقدم إلى حيرام ملك صور عشرين مدينة في أرض الجليل مقابل

الديون التي تراكمت عليه. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض الفلسطينيين الساحلية طلب معونة حميه فرعون مصر فأرسل إليه جيشاً مصرياً احتلها وسلمها إليه مهراً لابنته زوج سليمان»[١].

وسيراً على خطا الدارسين الغربيين، يقول سوسة:

«ويرى الكاتب الفرنسي جان لوي برنار، أن سليمان لم يكن يهودياً وإنما كان آشورياً، كان نائب الملك معيناً من الخارج، وهو شلمانصر الذي (عبرنه) اليهود فحولوا اسمه إلى سليمان وقد اغتيل على يدهم..»[٢].

ويمضي في ذلك الخط، ناقلاً عن برنار:

«وكان فرعون يعين في محميته (نائب الملك) ممن ليسوا من أهل المنطقة، ثم يزوجه امرأة من الطبقة الارستقراطية المصرية، وامتد هذا الاجراء حتى شمل الهاربين والخونة والمرتدين السياسيين وكذلك الرهائن من الأمراء، وكانوا ينشئونهم على الطريقة المصرية ويزوجونهم بالطريقة نفسها»[٣].

ومن ذلك أيضاً:

«وبهذا الخصوص أقول إن أفضل مثل يضرب دون نزاع هو

---

(١) العرب واليهود، ص ٥٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٥٠٣. وانظر نعناعة، المشكلة اليهودية، ص ص ٢٥٣ ــ ٢٥٧.

مثل سليمان ففي عهده دخلت سطوة مصر العسكرية في دور الاضمحلال، شأنها في ذلك شأن سطوة بابل، أما الكوكب الذي توسط كبد السماء فهو الكوكب الآشوري، فتحولت «نيابات الملك» التابعة من يد إلى أخرى، تحولت في فينيقية كما تحولت في فلسطين».

ويقول على المنوال نفسه:

«وأرجح كون سليمان سامياً، كما كانوا ساميين أولئك الأشوريون المتحدرون من جبال زاغروس، ومن صياصي القفقاس ومعهم شطر من الأكراد.. كل هؤلاء هبطوا إلى ما بين النهرين ليخضعوها بعد أن دب في أوصالها الانحلال.. وقد تمثلوا لغتها وثقافتها، والثقافات المسماة سامية نابعة من الجزيرة العربية الممعنة في الحضارة.. وسليمان من معدنهم، فهو نصف عربي (وهذه حصته البابلية) وهو نصف كردي. وهذا يفسر لنا الصداقة التي ربطت سليمان بالملوك الفينيقيين الذين ساعدوه في بناء هيكله الذائع الصيت في القدس. ويفسر لنا كذلك الحب الذي كرسته ملكة سبأ العربية للحكيم سليمان. ولو كان يهودياً لاستحالت هذه الصداقة ولاستحال هذا الحب إلى كراهية وبغضاء، لأن اليهود هم أمشاج مختلطة كانوا منبوذين في العالم العربي، ولكن هذا السامي الكردي مرتبط روحياً بمصر إذا لم يكن هذا الارتباط سياسياً، وقد تزوج بامرأة من طبقة روحية عليا تدين بديانة الآلهة هاتور وتتكتم في ديانتها هذه، وهاتور آلهة سماوية

ذات وجه أسود وإن آية الشاعر الملك الرائعة هي «نشيد الإنشاد» الذي هو عبارة عن غزل ديني كان سائداً آنذاك، وهو مصري قلباً وقالباً ومنهل خالص من مناهل الأدب الصوفي المصري: (أنا سوداء ولكني جميلة)»[1].

ونحن نقف حائرين إزاء تضارب المعلومات، فمنها قول سيد فرج:

«يعتقد كثير من المؤرخين أن أهم العوامل التي ساعدت داود على توطيد مملكته أن الأحوال في مصر كانت مضطربة فضعفت سيطرتها على فلسطين وبلاد الشام...»[2].

فهنا «كثير من المؤرخين»، يعتقدون أن داود كوّن مملكة مستقلة، أما سليمان، كما يقول سيد فرج، فقد:

«أدرك مبكراً أن مملكته الصغيرة لن تدوم إلا بتدعيم علاقاته الودية مع الدول الكبرى التي تحيط بها، فقام بتوثيق

---

(١) العرب واليهود، ص ٥٠٣. كما يقول:
«نشيد الانشاد لسليمان هو أحد أسفار كتاب العهد القديم، والتقليد اليهودي يشبه علاقة الشعب المختار مع إلهه بعلاقات الزوجة بزوجها، وأن دخول هذا السفر في الإسفار المقدسة إنما هو تجاوب مع هذه الصفات». المرجع نفسه، حاشية ص ٥٠٣.
(٢) القدس عربية إسلامية، ص ٥٦.

علاقاته مع جيرانه التي كان داود قد بدأها مع ملك صور، وتزوج سليمان ابنة فرعون. . .»[1].

وهـذا يعـود بنـا إلـى الاضطـراب الأول، والاعتمـاد علـى التوراة في النقل، حتى إن عارف باشا عارف يقول عن ملك سليمان في نقض لكل ما سلف: «اتسع ملكه من الفرات إلى تخوم مصر»[2].

ونجد التعبيرات مماثلة عند أحمد شلبي، الذي يقول:

«نال سليمان من عناية الباحثين والمؤرخين نصيباً كبيراً، فقد كانت دولة اليهود في أول عهده في أقصى قوتها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عصر سليمان اتجه إلى الملاذ والترف أكثر من اتجاهه إلى خدمة الدين والمبادىء، وبين أيدينا مجموعة زاخرة من المعلومات عن هذا العصر ترويها من الكتاب المقدس ومما كتبه المؤرخون والباحثون:

«لما آل الملك إلى سليمان، قتل جميع منافسيه ليستريح من متاعبهم، ولكن عمله هذا لم يغضب يهوه إلهه الذي أحب الملك الشاب ووهبه حكمة لم يهبها أحداً من قبله ولا من بعده، ويذكر سفر الملوك الأول أنه قتل أخاه أدونياً، وقتل يؤاب قائد جيشه وهو

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٥٦ ــ ٥٧. وانظر الرأي نفسه، ظاظا، القدس ص ٢٠.
(٢) تاريخ القدس، ص ١٦.

ممسك بقرون المذبح مستجيراً، وقتل شمعي أحد كبار الرجال في مملكة أبيه»[1].

ومن أمثلة الاندفاع مع الحماسة قول عبد الوهاب زيتون:

«إن مملكة سليمان وداؤود إن صح وجودها في ما قبل التاريخ ــ وذلك لضعف الثوابت التاريخية التي تشير إليها»[2].

ومن الغرائب أن يكتب عربي مسلم، فيقول عن سليمان:

«كان ملكاً مستبداً شهوانياً يستبيح كل شيء لاشباع شهواته، فالأخلاق كانت عنده كلمة لا معنى لها. . .»[3].

ولنستمع الآن إلى ما يقوله سعفان:

«تولى الأمر داود، الذي كان حامل درع شاءول بين ١٠٠٤/ ٩٦٠ق. م ــ وكان في أول الأمر يحكم بصفته تابعاً للفلسطينيين، لكنه تمكن من إحراز الاستقلال، ولم يكتف بذلك بل إنه وسّع حدود مملكته إلى جهات لم يبلغها سلطان اليهود من قبل، واحتل القدس، وجعلها عاصمة ملكه، بعد مقاومة عنيدة من اليبوسيين استمرت طويلاً. وأقام إدارة على الطراز المصري القديم، وأجبر دمشق على دفع الخراج له، كما أحبط مؤامرة ابنه أبشالوم، وأخمد ثورة الولايات الشمالية من مملكته، وأخضع

---

(١) اليهودية، ص ١٧٥. وانظر ص ص ١٧٦ ــ ١٧٧.

(٢) توراتهم هل قرأت، ص ٥٢.

(٣) هيكل، فلسطين قبل وبعد، ص ٥٠.

الموابيّين والأدوميين. . . ومع هذا فالدولة في أوج خيلائها ــ كما يقول بيللوك ــ كانت مائة وعشرين ميلاً في أطول أطوالها، وستين ميلاً أعرض أعراضها، وأقل من ذلك بكثير في أغلب الأحيان، فإذا خرج الرجل مع طلوع الشمس من القدس متجهاً شرقاً أو شمالاً أو غرباً، كان في وسعه أن يبلغ أطرافها في فترة وجيزة من الصباح. . . إنه لا يقطع اثني عشر ميلاً في أي من هذه الجهات إلا يكون قد خرج من حدود تلك المقاطعة.

وخلف داود ابنهُ سليمان الذي بدأ حكمه بقتل أخيه الأكبر أدونتا، وقتل يؤاب رئيس جيش أبيه، وعزل أبياثار الكاهن. . . وكانت مصر وأشور في حالة اضطراب مما ساعده على البلوغ بمملكته ــ ٩٦٠/ ٩٢٥ ق. م ــ أوج ازدهارها.

كان اهتمامه بالتجارة الخارجية والصناعة والتعدين والبناء والتعمير من عوامل عيشة البذخ والإسراف، على غرار ملوك مصر وأشور، وأسرف في بناء قصره الذي استغرق بناؤه ثلاثة عشر عاماً، واشتهر كذلك ببناء المعبد المشهور باسم (هيكل سليمان) الذي استغرق بناؤه سبع سنين، وقد اتضحت في بنائه الرمزية الكنعانية، واهتم ببناء الحصون والقلاع والثكنات، وأنشأ بمساعدة صديقه (حيرام) ملك صور أسطولاً. . .»[١].

---

(١) اليهود تاريخ وعقيدة، ص ١٧. وانظر نعناعة، المشكلة اليهودية، ص ٢٤٢ ــ ٢٤٤. وانظر النجار، أرض الميعاد، ص ١٦٥.

وأخذت مثل هذه الأقوال تتراكم بين أيدي الكُتَّاب، مقتدين بسوسة وأمثاله، حتى ليقول العفتان، نقلاً عن سهيل ديب، في كتابه: «التوراة بين الوثنية والتوحيد»، ص ٤٨:

«ومن الناحية الدينية فهي كذلك تعددية «فقد اثبتت الأبحاث التاريخية والأثرية أن طريقة بناء هيكل سليمان المشهور تشير إلى ديانة تعددية توفيقية وليس إلى ديانة توحيدية. وقد بناه مهندسو حيرام ملك صور وفق نماذجهم وطرقهم الخاصة بناء على طلب من سليمان»[١].

ثم هو يقر رأي داوود من... تأسيس دولة نبوة أمية وليس دولة إسرائيلية أو يهودية كما ادعى اليهود في كتبهم التي ضللوا بها التاريخ والمؤرخين»[٢].

رد وتعليـق

إن هـذا الحـديـث عـن سليمـان ومملكـة سليمـان، وبهـذه الطريقة، يسقط أي اعتبار لتقويم استنتاجات سوسة ومن اتبع خطاه، ووضعها في مكان ملائم من البحث العلمي الجدير بالثقة والموضوعية. إنه عبارة عن احتجاجات بآراء فرضية انبنت على توهمات شخصية ورؤى ضيقة، انغلقت في مضامين مشوشة، مدفوعة باحتمالات لا تقوم على أية أسس كان ينبغي التوخي فيها

(١) حقيقة اليهود، ص ٧٧.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٠. وانظر ص ٧٥.

عند العرض والمناقشة. لقد نَسَفت تلك الاستنتاجات التاريخ بجملته، وبثت البلبلة والحيرة في القارىء، خضوعاً للرغبات العاطفية والأهداف غير العلمية.

ولقد كان المفترض قبل كل شيء أن يستبعد سوسة وغيره أي نقاش، وأن يتكئوا أولاً على القرآن الكريم والسنة، ثم يُمْكنهم بعد ذلك أن يفتحوا الباب للاستشهاد والمراجعات، ففي القرآن الكريم نجد تاريخ سليمان ناصعاً بيناً، يقول الله تعالى:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٤].

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١ ـ ٨٢].

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ

ﭐدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ
ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٦ ـ ١٩].

إن هذه الآيات القرآنية الكريمة تحدّد لنا، على اختصارها وقصرها، كل تاريخ سليمان عليه السلام، وذلك على النحو التالي:

١ ـ إن مُلك سليمان كان مُلكاً مَلَكياً وراثياً، ورثه عن أبيه داود. وهذا يعني أن هنالك مملكة قائمة مستقلة في شؤونها الداخلية والخارجية، وليس لأية قوة كبرى في المنطقة أو خارجها أي سبيل عليها.

٢ ـ أنها مملكة غير عسكرية، لم تصطدم بجيرانها في حروب أو معارك تصرف قادتها عن الاهتمام بأمورها السياسية وبنائها الاجتماعي.

٣ ـ إن عهدي ملكيها: داود وسليمان، عهدا رخاء وازدهار واستقرار. وفي ظل هذا الأمن والضمان، نشطت الحركة التجارية البحرية، فكانت أساطيل تُجّارها تجوب البحار، وتعبر المحيطات في غدو وذهاب دؤوباً، مستوردة البضائع النادرة من أنحاء العالم القديم، ومصدرة غلات الأض الفلسطينية. وعلى هذا فإن حدودها البحرية الساحلية كانت مستقلة بها، وترتبط

إدارياً وسياسياً بالمركز في أورشليم (القدس).

٤ ــ أن النشاط البحري لهذه المملكة لم يكن قاصراً على التجارة الخارجية. إذ دفع الطموح التجاري بالسكان إلى استغلال أعماق البحار، لا سيما وأن المملكة كانت تشرف على معبَرين تجاريين عالميين هما: البحر المتوسط، والبحر الأحمر. أي إن المملكة لم تكن محصورة في شمال فلسطين، بل شملت كل الأرض الفلسطينية حتى الجنوب.

٥ ــ أن هذه المملكة التي كانت في قلب العالم القديم، محفوفة بقوى استغلال ومصادرة واستعباد: مصر، وبلاد كنعان، وآشور. وكان يجب على قادتها أن يهيئوا لها جيشاً عسكرياً قوياً، يستطيع الردع والمواجهة، والمحافظة على الاستقلال.

٦ ــ أن سليمان لم يكن غير يهودي، لقد كان يهودياً من بني إسرائيل من أبناء أولئك الذين خرجوا من مصر.

٧ ــ من الخطل، بل من السفه، أن يقال: إن سليمان كان نائباً لفرعون في مصر، وأنه زوج ابنته ليحفظ ولاءه؛ ذلك أن الاعتبارات الدينية تحول دون قبول مثل هذا اللغو في الكلام، ولا يمكن للمرء أن يرفض نص القرآن، ويقبل أن سليمان ورث داود، ويقبل كونه نائباً من أتباع السلطة المركزية في ممفيس، ثم يسقط كل التاريخ، ليسترسل وراء نزواته وأحلام يقظته.

[redacted]

٨ ــ أليس من التسرع، بل من الصلف وعدم الموضوعية في الدراسة والتناول، أن يخلص المرء إلى القول: «إن آية الملك الشاعر الرائعة هي «نشيد الإنشاد»، الذي هو عبارة عن غزل ديني... مصري قلباً وقالباً...». لقد فهمنا أن داود عليه السلام كان بديع الصوت، منشداً، ولم نعلم من القرآن الكريم أن سليمان كان كذلك. فلماذا لا نعدّ نشيد الإنشاد لداود، وليس لسليمان؟ ولماذا نربطه بمصر ونغفل الشعر الديني في منطقة بلاد الرافدين مثلاً، بل ننسى النشيد الديني الكنعاني؟ وما الذي يخولنا قبول هذه الأشعار على أنها لداود أو لسليمان؟؟

٩ ــ أما أن مملكة سليمان كان مملكة يهودية، فالذي لا ريب فيه أنه ورث داود، وداود يتبع طالوت، وطالوت يتبع موسى، فهم كلهم يتّبعون ديناً يهودياً خاصاً ببني إسرائيل عاماً في الناس، أي اليهود، ومعنى الأممية هو الانتماء إلى اليهودية. ومن اللامبالاة أن يثبت الكاتب أن لسليمان (هيكلاً)، ثم ينفي عنه اليهودية.

وقد كثر حديث الكتّاب المحدثين عن هيكل سليمان، ويجهد العلماء أنفسهم في البحث عنه[١].

---

(١) انظر كنيون، الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة، ص ص ٥ ــ ٦٦. =

والحق أنه لا سليمان ولا داود بنيا هيكلاً، فالهيكل معبد وثني، أما ما عمله داود وسليمان، فهو محاريب العبادة. قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١].

وقال جلّ شأنه: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وربما اشتبه على القراء ذكر التماثيل هنا، لأن الله سبحانه وتعالى قال في سورة الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢].

فالكلمة واحدة، والمعنى مختلف، ففي قصة إبراهيم التماثيل: هي الأصنام للعبادة، أما في قصة سليمان، فالتماثيل ـ كما يقول الطاهر ابن عاشور:

«لم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال في الشرائع السابقة وقد حرمها الإسلام»[(١)].

= وانظر عن حائط المبكي: الحق العربي في حائط المبكي في القدس (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨ م) ص ص ٥٢ ـ ٥٤.

(١) تفسير التحرير، ج ٢٢، ص ١٦٢.

هيكل سليمان

يتجاوز عارف باشا عارف اللياقة الأدبية والعلمية، فيقول عن سليمان عليه السلام:

«وفي أواخر حكمه مال إلى عبادة الأوثان. بنى بيتاً على الجبل الكائن أمام الهيكل»(١).

وليس هو كاتب كالذين ذكرناهم في المقدمة، وإنما له حجج وشواهد إسلامية في كتابه، ولكنها المتاهة التي غفل فيها أمثاله، حتى إنا نجد الكتاب المترجم إلى العربية (بحيث أصبح كتاباً عربياً، فهو يحمل أفكاراً إسلامية خالصة)، يقول، ومن المؤسف أن المترجم غفل هذه المرة عن ملاحظة الخلل في كلام صحابه:

«لما كان بنو إسرائيل يكرهون النظام الجماعي لم يوجد لديهم معبد إلى عهد «سليمان» ومن هنا برزت ضرورة لإقامة معبد بشوكة «سليمان» وأبهته. قرر «سليمان» إنشاء قصر له ومعبدٍ مستعيناً بالثروة الهائلة التي ورثها عن أبيه داود. وزاد هو عليها واستثمرها في التجارة وبمختلف الوسائل الأخرى، وخصص مبلغاً كبيراً لإنشاء هذين البناءين كما جمع مبلغاً آخر من كبار اليهود القادرين على التبرع.

أنشىء هذا المعبد على جبل صهيون رمز الصهيونية اليوم

---

(١) تاريخ القدس، ص ١٦.

على مساحة طولها أربعمائة متر وعرضها ثلاثمائة متر، وتم تشييده في سبع سنوات، وكان مهندسه المعماري الفنان هرام «إله» الماسيونيين.

كان هرام يهودياً، وفي رعاية ملك مملكة صور، وكان يحافظ على أواصر المودة مع «سليمان». ثم اتخذوه معبوداً لهم، وفضلاً عن أن طريقة الماسونية مضحكة فإن نظام عباداتهم وتقاليدهم وعاداتهم من مصدر بدائي تافه.

وعندما يرقى أخ إلى الدرجة الثالثة يخطب في أبناء المعبد الماسوني الخطبة التالية التي يظهر من ثناياها ما يبعث على الضحك عليها، ولا سيما أن الأمر غريب بالنسبة لمن يدرسها ويمعن النظر في معاني ألفاظها، ويبدأ الأستاذ فيها قائلاً:

«كان ذلك في العهد الذي وصلت سلطة «سليمان» بن داود وعظمته وأبهته إلى ذروتها. وبدأ هذا الملك الشهير بالعقل والحكمة في إنشاء معبد فخم باسم (يهوذا) الذي كان يعبده، وكلف هذا المعمار «هرام» ببنائه».

وسوف نتوقف عن نقل باقي الهذيان في الصفحتين الآخريين من الكتاب، لأن المؤلف عاد، فنسب القول فيها إلى:

«الخطبة التي تُلقى حرفياً في المحافل الماسوينة...»[1].

ولكننا سنستدرك عليه قوله في خاتمتها:

---

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، ص ٢٥.

«هذا المعبد اليهودي الأول الذي يترنم بجماله اليهود. . . رغم عدم بقاء شيء من أطلاله سوى بعض الحجارة التي غسلتها دموعهم. . . »[(١)].

أي إنه يشارك من يقول: إن معبد سليمان هو الهيكل الذي يصطف أمامه بقايا اليهود اليوم، كما قال عارف باشا.

وأن المرء لينزعج أيما انزعاج عندما يجد الكُتّاب العرب المسلمين ينساقون وراء كل طِلاء، ويتعلقون بكل قشّة. يقول نعناعة:

«لقد كانت الإنسايكلو بيديا على حق ــ تماماً ــ عندما أكدت أن بناء سليمان العهد القديم للهياكل لم يكن مقتصراً على ذلك الهيكل المعروف بهيكل سليمان على جبل صيهون، فلقد بنى سليمان هيكلاً آخر على الأقل على جبل الزيتون الذي يواجه جبل صهيون إلى الشرق، فخصصه للعبادة الوثنية»[(٢)].

وعلى الرغم من اليقظة الشديدة التي أبداها مؤلفا كتاب «اليهود في العالم القديم»، عبد العليم وسيد فرج، في نسبة ما يوردانه إلى التوراة، فإنهما نقلاً عن أولبرايت قوله:

---

(١) المرجع نفسه.
(٢) المشكلة اليهودية، ص ٢٤٠.
وانظر ص ص ٣٠٤، ٣٠٥. وانظر تأكيد فكرة بناء الهيكل ــ المعبد الكبير: ظاظا، القدس، ص ص ٢٠، ٣٦ ــ ٤٥.

«إن موسيقى المعبد ومغنيه الأوائل كانوا كنعانيي الأصل أو تعلموا على يد الكنعانيين، وعندما وضع داود موسيقى الإنشاد الديني وهي التي تبعها سليمان من بعده، لم يكن لديهما نموذج يسيران على هديه إللهم إلا النماذج الكنعانية...»[1].

كما يقولان:

«إذا كان الباحثون قد قللوا من الأهمية المعمارية لهذا البناء...»

ثم قالا:

«الأمر كما نرى ليس مشروعاً صغيراً نفذه سليمان كما اتفق، ولا كما تصوره بعض العلماء... إنما هو شيء يسهل معه تصور ما جاء في القرآن الكريم حول ضخامة الجهد الذي بذله سليمان لجعل عاصمة ملكه على نمط الممالك المطلقة السلطان في الشرق الأدنى القديم...»[2].

ثم قولهما، وقد أورد قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ

(١) اليهود في العالم القديم، ص ٨١، وانظر عن الهيكل ص ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٨٤ ـ ٨٥.

﴿شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٢ ــ ١٣].

«**وهكذا يبدو لنا أنه لا تعارض بين ما جاء في القرآن الكريم من عظمة ملك سليمان وما ورد من العهد القديم... ولذلك نشعر أن ملك سليمان كان أبعد ما يكون عما أراد الباحثون أن يصفوه به من الصغر والتقشف**».

بل يقولان:

«**واجه هذا التمرد الذي توافر في المأثور أن سببه كان الإسراف وكثرة النفقات مما أرهق بني إسرائيل بإقامة نظام من الضرائب...**»[1].

ويأتي **فؤاد حسنين علي** برأي قاطع على تأكيد تلك المزاعم السابقة، فيقول:

«**جاء في الخبر الصادق أن داود فكر في إقامة معبد ليهوه في... أورشليم، حتى يكون هذا المعبد عاملاً من عوامل اتحاد الأمة، وجمع شمل البلاد، إلا أن معارضة بعض المحافظين من رجال الدين ــ وعلى رأسهم ناثان ــ عرقلت تنفيذ الفكرة**»[2].

وإنك لتجد أخيراً كل الكتاب الغرب يربطون بين تحرير فلسطين أو تأديب اليهود على يد نبوخذنصر، فيرددون العبارة التالية:

---

(١) المرجع نفسه، ص ٨٥.

(٢) انظر هذا في سعفان، دراسة في التوراة والإنجيل، ص ٧٠.

«دمر نبوخذنصر هيكل سليمان. . .»[١].

وهذا اعتراف منهم بأن لسليمان هيكلاً، بقي حتى القرن السادس قبل الميلاد. . .

رد وتعليق

إنه لأمر خطير، خطير للغاية أن تستجيب الذهنية العربية الإسلامية، والإسلامية إلى هذه الفرية التي كثيراً ما توصف مثل مثيلاتها بأنها خرافة، أو أسطورة، أو حتى قصة من بنات الأحلام. فالحق أن الفكر المخطِّط وراء هذا السمّ الزّعاف، ليس فكراً بريئاً، يخرِّف، فيرسل الكلام على عواهنه، وليس هو فكراً حالماً، يتخيل الأشياء كما تتراءى له، أو حتى فكراً معذَّباً بآلام النفس وتباريح الوجدان؛ فهذه هي البنى الكامنة وراء الخرافة أو الأسطورة، أو القصة الساذجة. إن الفكر الذي أفرز هذه الفرية ومثيلاتها على حِقَب الزمان، فكر هدّام هدّام، فكر يجلس، ليخطط، ثم يسلِّم مسوّداته وأصولها الأولى، ومدوناتة الجديدة، إلى أعقابه في سرِّية تامة، ويتولى هؤلاء إيصالها بطرائقهم إلى كل منتم إليهم بحسب امتيازاته.

وهكذا برزت فكرة الهيكل؛ وما من هيكل، وبرز المعبد الوثني، وما من معبد وثني؛ وشاهد الناس يهوداً يصطفون أمام حائط بقاياه أطوالها كذا، ومساحته كذا. . . إلخ. فتركزت

---

(١) انظر ما مضى من هذا الكتاب.

عندهم فكرة الهيكل ــ والمعبد الوثني ــ والحائط. وإنه ليس هذا فحسب، بل هو بناء على جبل صهيون، رمز الصهيونية وأَرَقِها الأبدي. وتعميقاً لمفعول هذه الفرية، نسبوه إلى سليمان، الذي كانت له مملكة يهودية، وسليمان من الهيكل بريء.

إن الإنسان ليندى جبينه خجلاً، ويعتلج الهَمُّ في صدره أسفاً، أن يسجّل هذه الأقوال عن نبي من أنبياء الله، عاش هو وأبوه يروِّضان شعباً آمن بالشيطان. فما إن ماتا، حتى لطَّخوا سمعتهما، وشوهوا تاريخها الداعي للإيمان، واختلقوا حولها المطاعن، وشهَّروا بهما، ونسبوا لهما ما لم يكن فيهما، وزعموا أن لـه هيكـلاً، ومـا هــو إلا معبـد وثنـي لليهـود، لا لـداود ولا لسليمان.

ألا يرجع أولئك الذين كتبوا عن سليمان عليه السلام، إلى قوله تعالى فيه وفي أبيه؟ ولِمَ لم يهتدوا إلى ما جاء في الأحاديث الشريفة عن قيام داود وصيامه وعباداته وتقواه؟؟

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ...﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

بل إن التوراة تنص على أن سليمان بنى بيتاً لله ومحراباً، تقول:

«وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً: «هذا البيت الذي أنت

انيه أن سلكت في فرائضي وعملت أحكامي، وحفظت كل صاياي للسلوك بها، فإني أقيم معك كلامي الذي تكلمت به إلى أود أبيك»[1].

وكم هو جميل لو قال أولئك مثلما قال مؤلفا كتاب «**اليهود ي العالم القديم**»، وإن كان بعد الذي نقلناه عنهما سابقاً:

«إن ثمة ظلماً لمقام النبوة، فما كان لنبي مكرم أن يجلب لى ديانته عناصر وثنية، إن مثل هذه الترهات يجب مجابهتها الرفض لا بمجرد التحفظ. وما زالت صورة سليمان التي رسمها عض الباحثين صورة قاتمة لا تليق بنبي يتصرف بموجب رسالة وحي من ربه عزّ وجلّ»[2].

(١) الملوك الأول، الإصحاح السادس، ص ١٤ ـ ٣٠.

(٢) عبد العليم وسيد فرج، اليهود في العالم القديم، ص ٨٧.

الفصل الخامس

عزير الكاهن و عزير النبي





عُـزَيْـر

لسنا هنا في مواجهة انحرافات في التفكير، تعمداً أو غفلة، مثلما واجهنا سابقاً، إنما نواجه خطأً في الفهم، يستدعي المرء أن يتوقف عنده، لأنه يأتي في سياق الأحاديث السابقة، ربما يجيء من ينسبه إلى هذا أو ذاك من أبطال القصص والأساطير، وتحاشياً لمثل ذلك، وخشية من مزالق، كما جاء في قول شتيوي مع استشهاده بالقرآن الكريم:

«ولقد اشتط بنو إسرائيل فادعوا أن عزرا ما جاء بالتوراة التي نزلت على موسى بعد كل هذا الشتات وهذا الضياع إلا لأنه ابن الله، وقد وبخهم الله على هذا الاعتقاد الفاسد وتوعدهم بالعذاب الشديد فقال سبحانه:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وقضية الإلهام التي يدعيها اليهود قضية مختلقة كاختلاق هذه التوراة، ولا صحة لهذه الدعوة لأن مقتضى أن يكتب عزرا ما يكتبه بإلهام من الله تعالى ألا تكون منه أخطاء ولا تقع في كتاباته

أغلاط، لكن الأمر غير هذا، **فجمهور أهل الكتاب يقولون أن السفر الأول والثاني من أخبار الأيام صنفهما عزرا بإعانة حجي وزكريا ــ والثلاثة عند اليهود رسل ملهمون مؤيدون من الروح القدس ــ ومع هذا فإن في الباب السابع والثامن من السفر الأول تناقضاً وخطأً في بيان أولاد بنيامين، كما اختلف هذا مع التوراة المشهورة عن عزرا بوجهين.**

ثم يبين هذين الوجهين على النحو التالي:

«**الأول**: في الأسماء، **والثاني**: في العدد، حيث أنه جاء في الباب الثامن أنهم خمسة لكنهم في التوراة عشرة.

واتفق علماء أهل الكتاب على أن ما وقع في السفر الأول غلط لسببين:

الأول: أن عزرا لم يستطع التمييز بين الأبناء وأبناء الأبناء.

الثاني: أن أوراق النسب التي نقل عنها كانت ناقصة.

وحينئذ كيف يتفق قول بني إسرائيل أن عزرا قد أخطأ في سفر الأيام وقولهم أنه ملهم، وقد كتب التوراة بإلهام من الله تعالى؟ وكيف يكون ملهماً ويحتاج إلى استمداد معلوماته من طريق آخر غير الإلهام؟ بل ومن أوراق ناقصة؟».

ثم يضيف إلى هذا، قائلاً:

«**وقل مثل هذا أيضاً في توراة عزرا، فهذه التوراة منقطعة السند ولا صلة لها بتوراة موسى ــ عليه السلام ــ فعزرا قد ظهر**

بمقولة التوراة الجديدة وإلهامه إياها من الله تعالى من منتصف القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً، وهذا يعني أن بين توراة عزرا وفقدان توراة موسى ما يقرب من خمسمائة سنة، وبين توراة عزرا وتوراة حلقيا ما يقرب من مائة وستين عاماً، وهذا زمن كاف لانقطاع السند بين هذه النسخ الثلاث وبخاصة السند بين توراة عزرا وتوراة موسى»[1].

ويستشهد سعفان برأي يوسيفوس المؤرخ اليهودي في قوله:

«إن تقديس اليهود لموسى بلغ حداً بعيداً للغاية، وقد حوّلوا هذا التوقير فيما بعد إلى عزرا الذي استرد الحياة القومية لليهود»[2].

ثم يعلق عليه بقوله هو:

وهذا ما تستنكره الآية القرآنية: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾.

حقيقة عزرا اليهود

ومن أجل التعرف على شخصية عزرا صانع التوراة، والذي يؤلهه اليهود، نقتبس ما جاء في كتاب «إفحام اليهود»، لمؤلفه

(١) التوراة دراسة وتحليل، ص ٣٠ ـ ٣١، ٣٩. وهذا هو رأي الكاتب المسيحي: شنودة، اليهود، ص ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤.
(٢) دراسة في التوراة والإنجيل، ص ١١٦.

السموأل بن يحيى (ت ٥٧٠ هـ)، الذي يأتي به على النحو التالي:

«فهذه التوراة التي بأيديهم ــ على الحقيقة، (كتاب عزرا)، وليس كتاب الله!!»[١].

وكان (عزرا) هذا خادماً لملك الفرس، حظياً لديه، فتوصل إلى بناء بيت المقدس، وعمل لهم هذه التوراة التي بأيديهم»[٢].

«عزرا هذا ليس هو (العزير)، كما يظن، لأن العزير هو تعريب (العازار).

فأما (عزرا)، فإنه إذا عرب، لم يتغير عن حاله، لأنه اسم خفيف الحركات والحروف، ولأن (عزرا) عندهم ليس بنبي، وإنما يسمونه (عزرا هوفير)، وتفسيره: (الناسخ)»[٣].

ومعنى هذا أن عزرا، ليس هو عزيرا، فعزير (العازار)، كما ذكر محقق الكتاب في تعليقه:

«(العازار) اسم تكرر أكثر من مرة في العهد القديم، منهم: ابن هارون النبي ــ عليه السلام ــ وهو كاهن إسرائيل، يقوم على خدمة الرب وحراسة خيمة الاجتماع»[٤].

أي إن اليهود تعمدوا الخلط بين الشخصيتين، وإسباغ صفات النبوة، ثم أخرجوها إلى النبوة، وألصقوها بكاتبهم عزرا.

---

(١) إفحام اليهود، ص ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٥١ ـ ١٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٤) المصدر نفسه.

وفي تنبيه جدير بالإيراد، يقول المحقق أيضاً في تعليق له آخر:

«إن علماءنا المتثبتين كانوا يرون ذلك، ولا يخلطون بين الرجال، لا سيما وأن الخلط في هذه الحالة خطير جداً، لأنه بين رجل صالح (العازار): المترجم إلى العربية بـ(العزير)، وبين فاسق جاهل فارغ هو (عزرا) الورّاق، رئيس الكتبة المنشقين الذين حرّقوا التوراة وبدّلوها!!»[1].

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

الفصل السادس

فهم التاريخ

العرب واليهود

العرق والسلالة

منذ أن شاعت نظرية السلالة الهندأوربية والسلالة الساميّة، انكب المؤرخون على ربط مجموعات هاتين السلالتين ببعضهما، وأصبحت المجموعة الساميّة تشمل كل الجماعات العرقية في المنطقة الممتدة من اليمن جنوباً حتى جبال طوروس شمالاً، ومن الحدود الشرقية لإيران حتى قناة السويس، ومن هذه الجماعات: الكنعانيون ومنهم الفينيقيون، والحيثيون، والبابليون والأكديون والآراميون، واليهود، والعرب.. الخ.

ولم يقتصر هذا التقسيم العرقي على مفهوم الساميين، الذي جاء بتأثير من تقسيمات التوراة، وإنما عدل عنه الدارسون المحدثون إلى مسمى جديد، هو العرب، فكل هذه الجماعات العرقية، هي في نظرهم، عرب، قَدِموا، حسبما يتصورون في جملتهم، من جنوب الجزيرة العربية.

ولندع الآن **سوسة** الذي أثّر كثيراً في قُرائه، وأشاع هذا المصطلح بينهم، لنأخذ واحداً ممن تشبّث بمثل هذه الآراء، فراح يقول في منطق جدلي:

«إذا كان إسحاق هو الابن الثاني لإبراهيم، ويعقوب هو الابن الثاني لإسحاق عليهم السلام، ويهودا هو الابن الرابع ليعقوب، فإن معنى هذا هو أن اليهود هم فرع متفرع من فروع الأسرة الإبراهيمية وإبراهيم عليه السلام عربي وليس عبرياً»[١].

وهذا منطق لا يستقيم مع التاريخ، ومغالطة لا تتفق مع الواقع، وهكذا تقول كل المأثورات الشفهية والتاريخية، أما الاستشهاد بقول العقاد عن عروبة إبراهيم:

«السلالة السامية العربية... ربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم إن إبراهيم عليه السلام كان عربياً وأنه يتكلم اللغة العربية»[٢].

فهو استشهاد، سبق أن استشهد به سوسة، وعَدّ العقاد لذلك: «أحسن الكتاب العرب الذين كتبوا في هذا الموضوع»[٣]، ولا حجة فيه، فالعقاد يتحدث بطريقة عاطفية، لا يستند فيها إلى أي دليل.

ودعنا بعد ذلك من الزعم بأن لغة إبراهيم هي اللغة العربية، فالمأثور العربي الشفهي نفسه ينفي هذا، ويُثبت عكسه،

---

(١) العفتان، حقيقة اليهود، ص ٣٦.
(٢) إبراهيم أبو الأنبياء، ص ٢٠٣.
(٣) العرب واليهود، ض ٤٥٦.

ويذكر أن إسماعيل تعلم اللغة العربية من غيره، من بقايا القبائل العربية البائدة، من جَرْهُم.

لقد أصبحت عروبة الساميين أمراً مقرراً حتى إن سيد فرج، يردد في مقدمة كتابه: «القدس عربية إسلامية»، هذه المقولة، فيقول:

«إن العرق السامي عربي في أصوله الجغرافية، ثم غدت مسيحية في عهد الرومان البيزنطيين ولكنها ظلت سامية من حيث العرق والسلالة البشرية، ثم أصبحت إسلامية من حيث الدين وظلت عربية سامية من حيث التكوين والسلالة»[1].

ويقول:

«اليبوسيين، وهم فرع من الكنعانيين... كانوا قد نزحوا.. من قلب الجزيرة العربية حوالي ٣٠٠٠ ق. م»[2].

ولو كان هذا صحيحاً، لما كانت هناك لغات خاصة لكل جماعة من هذه الجماعات، أما القول إنها لهجات، فهذا أمر لا ينطبق على مفرداتها وتراكيبها، إنها لغات تتمثل في أبناء كل مجموعة لغتها الخاصة بها وثقافتها وتاريخها.

---

(١) القدس عربية إسلامية، ص ٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٢.

ومن الأمور المغرقة في الإيهام والبطلان قول **ابن الشريف** عن اليهود:

«إن الدم الإسرائيلي العربي الذي كان في الجدود الأولين»[1].

أي إن اليهود عرب، كما قال سابقوه: إن الساميين كلهم عرب. فإذا كان الأمر كذلك، فلم النزاع، ولم الصراع، ولماذا القيل والقال؟؟

المصريون الفراعنة

ومن الأخطاء العلمية غير المستساغة ما زعمه صابر **طعيمة**:

«إن المصريين فوق أنهم عرب من العمالقة، من العرب البائدة الذين هم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، والعماليق، ومن العماليق كناعنة الشام وفراعنة مصر»[2].

رد وتعليق

هناك حقائق علمية ثابتة يجب على المرء أن يتحرى

---

(١) الشعب الملعون في القرآن، ص ٥٢. وانظر طعيمة، في أماكن متفرقة من كتابه، اليهود دين وتاريخ.

(٢) بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، ص ١٣١. كناعنة: يعني الكنعانيون.

الصواب فيها، وهي حقائق من اللازم على العالم أن يحترمها ويتقيد بها، ما دام الهدف هو الوصول إلى الحقيقة، وتبليغ رسالة علمية تحرر الإنسان ــ خاصة الإنسان العربي ــ من قيود التبعية والاستلاب. وما أظن أن أحداً يتجرأ ليقول إن تاريخاً يمتد آلاف السنين، قبل وجود طسم وجديس، هو في موازاة ذلك التاريخ.

وليس هناك وثائق علمية تثبت وجود صلة عرقية بين فراعنة مصر وعاد، فإذا كان ذلك رجماً بالغيب، وظناً غير موفق، فإنه لا يليق بعالم مثل طعيمة أن يتسرع في طرحه، إذ إنه رجل يعتمد عليه في مثل هذه الأقوال. وربما جاء من جاء، فعده صواباً، وهنا يقع الصراع بين المكتشفات الأثرية والموثقات العلمية، والرغبات الشخصية، وهي أمور تعيد القارىء مسافات فكرية إلى الوراء، بدلاً من هدايته ورشاده.

الفلسطينيـون

رأينا أن كُتَّابنا يسايرون دعاوى التوراة ــ دونما سند من تاريخ، أيّاً كان ذلك التاريخ ــ فيرددون أن داؤد قاتل الفلسطينيين تحديداً. وهذا رياض بارودي نصراني، يعبر عما في التوراة، فيقول:

«احتل الموسويون، بقيادة يوشع، أريحا ومدن فلسطين الجبلية حتى مدينة القدس، التي كانت قد حمتها أسوارها المنيعة وأصحابها اليبوسيون الأشداء، أما ساحل فلسطين، من العريش حتى يافا، فقد احتله الفلسطينيون، الذين قدموا إلى فلسطين سنة ١١١٩ ق. م من سواحل بحر إيجة، واستطاعوا أن يقيموا لهم في

السهل الحالي الفلسطيني كياناً مستقلاً، إلا أنهم، بعدما يقرب من قرن ونصف من الزمن، اندمجوا مع الكنعانيين الذين كانوا متقدمين عليهم مدنية وحضارة، فأصبحوا منهم.

قدم الفلسطينيون إلى فلسطين، وأتباع موسى فيها، في عهد يشوع، إلا أن يشوع لم يحاول أن يتحرش بهم، نظراً لتفوقهم الحربي عليه، ولأنهم كانوا يستخدمون أسلحة حديدية ليست بيد جيشه، كالدروع مثلاً»[1].

ويقول الفاروقي، الفلسطيني، والذي اغتالته الصهيونية، وهو بصدد الحديث عن داود عليه السلام:

«حارب الفلسطينيين (وهم قسم من «أهل البحر» الذين استوطنوا الساحل الفلسطيني الجنوبي»[2]، وقد عرّف «أهل البحر» الفلسطينيين هؤلاء بأنهم: «الكريتين والإغريق»[3].

ودعنا نتوقف برهة عند مزاعم نعناعة الطويلة حول هذا الشأن؛ إنه يقول:

---

(١) اليهودية العالمية، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩. استشهدنا به هنا، لخطورة الفكرة.

(٢) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، ص ٤٦.

(٣) المرجع نفسه، وانظر التكرار نفسه في: فلسطين تاريخها وقضيتها المرحلة الثانية (بيروت: المؤسسة الفلسطينية، ط أولى، ١٩٨٣ م) ص ٥. وانظر كذلك الأحمد، فلسطين تاريخا ونضالاً. ص ٩.

«أما فيما يتعلق بالفلسطينيين فلا محيص من التحدث عنهم كشعب طارىء لا يمت بصلة إلى الكنعانيين الساميين، سكن في الأرض وكان له فيها نشاط بارز. جاء ذكر الفلسطينيين في سفر التكوين بوصفهم قوماً يسكنون ساحل كنعان الجنوبي الغربي منذ أيام إبراهيم وإسحاق وهذا ـ كما سبق أن أشرنا ـ مخالف للواقع، فإن البلاد السورية كلها لم تعرف الفلسطينيين إلا في النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد وهي حقبة متأخرة عن عصر إبراهيم بضع مئات من السنين».

بل لا يكتفي نعناعة بتأخير الوجود الفلسطيني إلى وقت متأخر عمّا يقر به اليهود أنفسهم، وإنما يقول:

«تقص حوليات رمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ ق. م) كيف اضطربت جزر البحر الأبيض وأخذ سكان البحر يفدون على مصر وبلاد الشام من كريت وصقلية فتصدى لهم وهزمهم وأجبرهم على دفع الجزية.

وكان واضحاً أن الفلسطينيين وهم يجتاحون السواحل السورية عازمون على الاستيطان وإلا فلا معنى لاصطحابهم نساءهم وأولادهم ومقتنياتهم التي حملتها عربات ضخمة تجرها الثيران»[1].

---

(١) علق الأستاذ محمود عبد المالك على هذه الفقرة ساخراً بحق: «عربات تجرها الثيران على الماء!».

وعلى هذا فالفلسطينيون غرباء عن الأرض وعن كنعان، يقول:

«وكان استيعاب الفلسطينيين السريع للغة الكنعانية من الأسباب التي حيّرت المحققين في ردهم إلى أرومة عرقية معينة، فأسماء المدن الفلسطينية على ساحل كنعان أسماء سامية، وكذلك أسماء ملوكهم في معظمها».

إنهم ليسوا عرباً، كما يصفهم بعض الكتّاب، وليسوا ساميين كنعانيين، أو يبوسيين، إنهم غزاة، ودليله هو:

«يذهب هـ. ج ولز إلى أن سكان البحر ينتسبون إلى جنس أو أجناس ترتبط برابطة الرحم واللغة بالباسك غرباً والبربر جنوباً، وقد كشفت حفائر كنوسوس في كريت عن حضارة إيجية عريقة بلغت ذروتها حول ٢٥٠٠ ق. م ولكن كارثة ألمت بتلك المدينة الزاهرة في نحو العام ١٤٠٠ ق. م، ولعل زلزالاً مدمراً قضى على كنوسوس ثم أتم الإغريق المغيرون ما بدأه الزلزال»[1].

وليت الأمر اقتصر على هذا، بل إن نعناعة يتخلى عن أي سمت علمي، فينطلق في رواية قصة إنشائية تقول:

«ولم يكن خضوع الإسرائيليين للفلسطينيين أمراً مخالفاً

---

(١) المشكلة اليهودية، ص ص ١٧٨ ــ ١٨٨. وانظر هيكل، فلسطين قبل وبعد ص ٤٠.

لطبيعة الأشياء.. فإن الإسرائيليين وهم يستعدون لدخول أرض كنعان لم يضعوا في حسابهم إلا هؤلاء الكنعانيين المسالمين الذين سبق أن أفسحوا لهم مكاناً بينهم حينما وفدوا إلى البلاد مسالمين في رحلتي إبراهيم ويعقوب من حوض الفرات.

ولم يدر في خلد الإسرائيليين أن غزاة طارئين هم في طريقهم للاستيطان على السواحل الكنعانية، وفي أيديهم سلاح متين من الحديد، لم يسبق لأهل المنطقة أن استخدموه أو عرفوه فقد كان استخدام الحديد كسلاح، في ذلك الحين حكرا على الفلسطينيين والحثيين من أهل الأناضول الذين سيطروا لفترات متقطعة على الشمال السوري، وحرص الفلسطينيون والحثيون على الاحتفاظ بسر صناعة الحديد حتى اضطروا بعامل الضغط الخارجي إلى إشاعة هذه الصناعة الهامة، ويمكن استخلاص هذه الحقيقة من قول سفر صموئيل الأول «ولم يوجد صانع في كل أرض فلسطين، لأن الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً، بل كان ينزل كل إسرائيلي إلى الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد سكينة ومنجله وفأسه ومعوله»[1].

ومع أن أي قارىء منصف، يعرف أن هذا الإنشاء ليس علمياً أبداً، فإن صاحبه يقول: «وقد ذكرت هذه الحقيقة...»[2].

---

(١) المشلكة اليهودية، ص ١٩٠.

(٢) المرجع نفسه. ويقول في الحاشية: =

رد وتعليـق

هل يقبل عاقل هذا الكلام، سيما إذا كان الهدف من الكتابة إقامة الحجة على اليهود في سكنى فلسطين؟ أليس هذا الهراء مستقى من التوراة المحرفة، فلم الاعتماد عليه؟ ولماذا الاستشهاد به، وهو خبر موضوع لأغراض سياسية بحتة؟

أليس الأجدى من كـل هذا، التأكيد ــ كما هو الواقع ــ على أن الفلسطينيين هم أصحاب الأرض، وليسوا غرباء عنها، وأنهم من السلالة الكنعانية التي نشأت في البلاد منذ أبعد الأزمان؟

وألا يلاحظ المرء أن هذا الخبر مخلوق برمته، جاء من تأثير قوة الإغريق في تلك العهود، إذ هو خبر لا يتفق مع ما أثبته القرآن الكريم من أن داود عليه السلام هو الذي ابتكر صناعة الدروع؟

وإذا كـان تـاريـخ الفلسطينيـين معلـومـاً ــ وهـم أصحـاب الأرض وأبناؤها ــ وقد تشبث الكتاب العرب بمسمى فلسطين، أو بلستين، ورووا في أصلها ما شاؤوا روايته، ثم أخذوا بحيلة

= «من المعروف أن الحديد استعمل بصورة محدودة في الألف الثالث ق. م، أما استعماله في صنع الأسلحة والأدوات الأخرى بديلاً عن البرونز فقد بدأ في الشرق الأدنى وجنوب أوروبا نحو ١٢٠٠٠ ق.م، وبين ١٢٠٠ ــ ١٠٠٠ ق. م، انتشرت معرفة استخدام الحديد وأخذ البرونز ينسحب بالتدريج ليمسي أداة من أدوات الترف».

التوراة المحرفة، فخدعوا أهلَهم وخدعوا أنفسهم، فأنى لنا نقبل من نعناعة أن يقول:

«الإسرائيليون أو العبرانيون.... جماعة مجهولة الأصل.. الخيرو»[1].

أليس في هذا تناقضاً تاريخياً، أن يُعرَف تاريخ الفلسطينيين: غزاة، غرباء عن الأرض، ثم لا يُعرف أصل الإسرائيليين أو العبرانيين، أو الخبيرو؟

ومع كل ذلك، فإن صابر طعيمة يصف الفلسطينيين بأنهم عرب[2]، بل يذهب إلى تعميم العروبة على كل الجماعات في المنطقة[3]. وقد رأينا ظاظا يقول:

«كان سكان البلاد الأصليين «الفلسطينيين» ثم هو يجعلهم واليبوسيين سواء[4].

ويصرح مصطفى كمال عبد الحليم وسيد فرج راشد أن أصل اليبوسيين يعود إلى شبه الجزيرة العربية»[5] فهم في

(١) المشكلة اليهودية، ص ٢٥٠.
(٢) اليهود بين الدين والتاريخ، ص ص ١٩١.
(٣) المرجع نفسه، انظر ص ص ١٣٨، ١٤٨، ١٨٣، ٢٢٨ وغيرها...
(٤) ظاظا، القدس، ص ١٧.
(٥) اليهود في العالم القديم، حاشية ص ٧٦.

فلسطين: «سكانها العرب الأصليين»[١].

إننا هنا باختصار شديد، وهنا بالذات، نقع على الكلمة الفصل في مفهوم الخرافات والأساطير، فهذه أكبر كذبة في التاريخ تَقَبَّلُها الغفلة والسذاجة، فتصبح حقيقة تاريخية، يُلتمس لها سند وثائقي، حتى يرضى بها العقل، ويستسلم لها المنطق.

ولو تأملنا جدياً فيها، لوجدناها أم الأساطير، وبنت الخرافة والأكاذيب، ولا يحتاج المرء إلى كبير جهد لإثبات ذلك، فالمعروف أن جزيرة كريت هي الممر الثقافي إلى اليونان، والأساطير اليونانية تخرج منها لتعود إليها، وكانت إحداها: الفلسطينيون جاءوا من جزيرة كريت، إنهم في التفسير الأسطوري: السيكلوب (العملاق ذو العين الواحدة)، أو الجورجون (الوحش المجنح الشعر من الأفاعي، إذا ما حدق في الإنسان حوله إلى حجر)، أو القنطورس (نصف إنسان ونصف حصان)، أو الهدرة (الأفعوان ذو التسعة الرؤوس)، إنهم إنهم كل ما يخيف بني إسرائيل ويحاولون التخلص منه: إنهم صانعوا الدروع والمحارِبون، وهم المحارَبون، ولكنهم باقون.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٧٦.

الفصل السابع
خاتمة اليهود

المسيح الدجال

يتحدث سوسة أحاديثه المعروفة، فيمس كل ما يتعلق بالمعتقدات الدينية، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا حاول نبشها وإثارتها، ظناً من نفسه أنه يعثر على اكتشافات جديدة، يدمغ فيها اليهودية ويطعن عليها، فكانت وراءها سذاجة وبساطة لم ينتبه خلالها أنه إذ يصنع ذلك الصنيع إنما ينجرّ إلى المعتقدات الإسلامية، التي إن هُدمت، هدم كل ادعاء بإقامة حق ونكران باطل، فعن المسيح الدجال، يقول:

«رسم اليهود الصورة التي تخيلوها للمسيح المنتظر فذكروا أن الناس في ظله لن يعيشوا وحدهم في العالم الجديد في سلام وسعادة بل يشاركهم في ذلك كل أنواع الحيوانات، فالذئب يسالم الحمل، والعجل يداعب الأسد، ويربض النمر مع الجدي، والعجل المسمّن والشبل معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدبة ترعيان، تربض أولادهما معاً الخ. . . ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من أشور ومن مصر ومن حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتني يهوذا من أربعة أطراف الأرض، وظهر عيسى بن مريم وأعلن بعض اليهود أنه المسيح المنتظر ولكن

أكثرهم رفضوا هذا الرأي وقاوموا دعوة عيسى حتى حاكموه وصلبوه»[١].

ويخلص ـ كعادته ـ إلى الاستئناس بآراء غيره، فيقول:

«يرى البعض أن فكرة المسيح المنتظر برزت من الفكر اليهودي في وقت متأخر ولم تظهر إلا بعد سقوط دويلة اليهود وأسرهم في بابل ثم خضوعهم للفرس وهذا ما دفع كثيرين من الباحثين إلى الاعتقاد بأن فكرة المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التي كان يدين بها الفرس»[٢].

ويبدو أن الكتّاب العرب المسلمين يستأنسون لفترة الاسترخاء الفكري، كما يتضح من قول النجار في هذا الموضوع:

«... وفي القصيدة المصرية... ما يشبه ذلك فإن سقوط الدولة القديمة قد جعل المصريين يتطلعون إلى المنقذ الذي يعيد إلى الدولة مجدها، فقد روي عن الحكيم «أبيود» أن المنقذ يحيل النار برداً وسلاماً ويرعى الناس جميعاً ويلم شمل قطعانه...»[٣].

ومثلما تعودنا أن نجد صدى لآراء سوسة في غيره، نجد صدى هذا الرأي عند شتيوي، الذي يقول:

---

(١) العرب واليهود، ص ٣٠٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٠٤.

(٣) أرض الميعاد، ص ١٨٠، وانظر ص ١١٨.

«عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تحكي عقيدة «المخلص» المنتظر موجودة في الديانة الفارسية وموجودة في الديانة الإسرائيلية.. وكان البابليون يؤمنون بأن الإنسان تمرد على قسمة الموت وطمع إلى خلود كخلود الأرباب فبحث عن ثمرة البقاء في السماء وخدعه إله ماكر عن بغيته فناوله بديلاً منها ثمرة تشبهها في ظاهرها ولكنها ثمرة الفناء...»[1].

ولن نخوض في هذه المسألة، فموقف المسلمين معروف منها.

الخاتمة الأولى لبني إسرائيل (اليهود)

وينقل ابن الشريف تفسيراً للمقصود بالمرة الثانية في ما مضى من آيات: «فإذا جاء وعد الآخرة...»، فيقول:

المرة الثانية من الفساد: هي ما فعله ويفعله بنو إسرائيل الآن، فقد استشرى شرهم، وتفاقم خطرهم، وأصبحوا مع الدول الاستعمارية حرباً لا تنطفىء لها أوار على كل القيم والفضائل الإنسانية، ومن ثمَّ نلمح مصيرهم فيما يفهم من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾ [الإسراء: ٧]. فإن هذا يعني أن الذين سلطهم الله عليهم في

---

(١) التوراة دراسة وتحليل، ص ٤٧. وانظر ظاظا، الفكر الديني، ص ص ٩٨، ١٠٠، ١٠٨.

المرة الأولى، هم الذين سيمكنهم منهم في المرة الثانية، «لأن مرجع الضمير واحد».

ولكن مصيرهم في هذه المرّة سيكون السوء الذي تظهر آثاره على وجوههم، والخراب والدمار لديارهم، فإن معنى: التتبير ــ الهلاك، ومعنى ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟﴾: ليهلكوا ما يتمكنوا منه ويتسلطون عليه»[1].

رأي:

ربما بدا للقارىء العجل أن هذا التفسير معقول، لا سيما أن الواقع الذي نعيشه يشجع كثيراً على معاضدته وقبوله، وهناك علامات تنطبق مع احتمال أن يكون هذا التفسير بعض ملامحها البارزة.

ولكن، ولكن قد قيل إن ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، هو ما حصل لبني إسرائيل أيام نبوخذنصر خاصة، سنة ٥٩٧ ق. م. ومن قبله سرجون الثاني عام ٧٣٣ ق. م. بل قال بعضهم إن ذلك الوعد هو ما وقع لبني إسرائيل في مصر. وهناك من رأى أن الوعد تحقق

---

(١) انظر عن المسيح المنتظر عند النصارى، بارودي، اليهودية العالمية ص ص ٦٩ ــ ٧٥. وانظر عن المسيح الدجال عند اليهود، ابن الشريف، الشعب الملعون في القرآن ص ص ١٠٨ ــ ١١١.
وانظر: زيتون، توراتهم هل قرأت، ص ٤٧.
البار، المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، ص ص ١٢٠ ــ ١٥٢.
السفاريني، أهوال يوم القيامة وعلاماتها الكبرى، ص ص ٣٥ــ ٣٦، ٢٢٤ ــ ٢٧٠.

عند ظهور الإسلام وإجلاء اليهود عن الحجاز، ودخول عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس. وتصور بعضهم أن تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي هو ذلك الوعد.

ونحن نرى ـــ والله أعلم ـــ أن ﴿وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾

لم يأت بعد: وإننا الآن نعيش ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾.

وذلك لعدة أسباب، منها:

أن سياق الآيات القرآنية يقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي (إذا) الشرطية، التي تتحدث عن شيء سيقع في المستقبل، وهذا القول كان وقت نزول القرآن الكريم، أي إن ما سيقع سيكون بعد ذلك.

والأمر الآخر، أن ما نراه الآن ليس من دلائل ﴿وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾، فعلى الرغم من كل هذا الانحطاط الذي نعيشه، وعلى الرغم من كل النكبات والنكسات التي تحيط بنا ونتردى في أوحالها، فهناك عوامل إيجابية، تجعل اليهود هم الخاسرون، ونحن الفائزون إن شاء الله. إن اليهود المحتلين في أرض فلسطين متفرقون، فهناك يمين ويسار ووسط، وطبقات عليا وطبقات سفلى، وآخرون محرومون، وكثير منهم معذبون، هربوا من جحيم الاستبداد، وأغلبهم موهومون.

لقد جاء اليهود الأولون إلى فلسطين، ليس بدوافع دينية

خالصة، وإنما تحقيقاً للسيطرة والملك، إنهم محتلون، نافسوا في أطماعهم أحلام المحتلين الإنجليز والفرنسيين والألمان والهولنديين والأسبان، في وقت اشتداد قبضات السيطرة والاحتلال، فكان تحقيق وطن قومي لليهود، يعني تأسيس موطن احتلال على غرار ما فعله الانجليز مثلاً في أستراليا، والفرنسيون في الجزائر، إلى غير ذلك، فما وراء تأسيس ذلك الوطن كان رأس المال واسترقاق الشعوب.

وتحقيقاً لوعد أولاهما تلك، جاءت الأقدار باليهود الطامعين إلى فلسطين، فهم مذبذبون بين الدين والوطن والطموحات الاقتصادية.

وفي المقابل نجد العرب المسلمين، على الرغم من كل مثالبهم وعيوبهم، لهم جيوش رادعة، وثروات نامية، ويتنافسون في مجالات كثيرة علمية وأدبية، يقاومون، ويكابدون، وهم على قيد الحياة مستمرون، فيهم تقام الصلاة، وتعمر المساجد، ويتلى القرآن، يعصي بعضهم الدين، ثم يعود إليه، تائباً نادماً؛ كلهم يرون أن عدوهم الأول هم اليهود، مهما بلغت خلافاتهم وصراعاتهم وبطشهم ببعضهم، والفلسطينيون راضون بما كتب الله عليهم، وبما هم به مبتلون، وهم بين سجين وقتيل وشريد مأسور، ولكنهم شوكة في جنب عدوهم، وعيون تبرق ناراً في منامات أعدائهم المحتلين.

لليهود قوة نووية جبارة، ولكن ماذا هم بها فاعلون، أيدمرون الكون، وهم أشد حرصاً على حياة؟ ويوم يأت ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، لن ينفعهم ما يمتلكون من صواريخ وقنابل... الخ.

إن ما نحن فيه هو ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾، ذلك أن اليهود في الأرض المحتلة، لا يستطيعون البقاء والصمود نفسياً أو عسكرياً، دون حماية خارجية، ولولا هذه الحماية الخارجية، لكانوا قبل اليوم خبراً وأثراً، فإلى متى ستدوم هذه الحماية؟

وحيث إننا ذكرنا نبوخذنصر، وبختنصر، فلا بد أن ننبه إلى خطأ جسيم صار حقيقة عند كل الكتاب، ألا وهو أنهم يصفون ما حدث لليهود بأنه: «**السبي البابلي**»، وهو تعبير توراتي، ولم يذكره القرآن أو السنة المباركة، وهو في حقيقة أمره انتصار للحق والعدل على الظلم والطغيان، أو إن شئنا قلنا: بلاء ظالم لظالم، وفجور أحدهما بآخر، إن التعبير بـ«**السبي**» مقتبس من التوراة ومؤرخي اليهود والمتأثرين بهم، وما هو بسبي، إنه تحرير وإنقاذ، أو تأديب وترويض، أو تأمين وأمان؛ وأخطر من هذا التعبير قولهم: «**النفي البابلي**»، وكأن لليهود حقاً شرعياً في العودة إلى فلسطين.

ولم يمض على اليهود في فلسطين إلا عدد محدود من العقود، فأين منها روديسيا (ناميبيا حالياً)، وأين منها جنوب أفريقيا، بعد احتلال دام قرون؟؟

أما في وعد الآخرة، فيصدق فيهم قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٥].

الفصل الثامن

فساد نظرية الرمزية المطلقة في القصة القرآنية

إذا ما حسب الدارس أن مؤلِّفاً ما، أساء المعنى، ولم يستطع الإيصال السليم، فإن قدرات البشر متفاوتة، وإمكانات العقل البشري محدودة، على الرغم من اتّساعها، وتبحرها في الثقافة والعلوم، فمن ذلك أن يَفهم التهامي نفرة أن خلف الله يقصد بالرمزية معناها الباطني، حين يورد رأي **خلف الله** في كتابه، «**الفن القصصي في القرآن الكريم**» صفحة، ٢٧٢ :

«. . . نحن. . نفهم المسألة على أنها قصة رمزية تصور النزاع بين من آمن ومن استكبر، وكيف يحاول الثاني أن يغلب الأول على أمره، فيعده ويمنيه حتى يخرجه عن الطاعة والإيمان، ويقول له ما قال الشيطان فيما صورة القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم : ٢٢]».

فإذا كانت المسألة مسألة رؤية واعتبار، فلا مانع من أن يفهم المرء ذلك ولا معنى بعد ذلك أن يواصل التهامي نفرة تعليقه، فيقول، ص ١٧٥ :

«لقد اشتمل القرآن الكريم على صور تمثل الرمزية العربية في الإيجاز والتعبير غير المباشر الذي يخفى على غير الأذكياء، لا الرمزية التي يتحدث عنها المجددون بأنها فيض عن مشاعر ذاتية، شبيهة بالتهويمات والرؤى والأحلام، ولغموض هذه المشاعر، كثيراً ما تتحول إلى ألغاز أو طلاسم، ولا يملك مفاتيحها غير أصحابها. والناس يختلفون في فهم ما تدل عليه الرموز باختلاف مشاعرهم ونوازعهم، كما يختلفون في فهم ما ترمز إليه لوحة من لوحات (بيكاسوا) مثلاً».

غير أن الخطر الكبير يأتي حين يتحول هذا إلى دمج بين الأسطورة والرمز، وكما يقول الأستاذ الدكتور نعمان السامرائي؛ ليس في القرآن الكريم سوى الآيات، فإذا وجدت الأساطير، فإنها تكون خارج الآيات، إن ما فعله خلف الله تلاعب بالألفاظ، وتهرب من التبعة. لقد نقل **التهامي** نفرة حديثاً مطوّلاً **لخلف الله** عن كتابه: «**الفن القصصي في القرآن**»، وحاجه في ذلك محاجة طويلة أيضاً، وهما ذوا علاقة بما نحن بصدده، ويحسن بنا تتبعهما، يقول ص ص ١٦١ ـ ١٧٢:

«يذهب الدكتور «خلف الله» إلى أنّ في القرآن أساطير. وليس له في ذلك من الأدلّة المقْنعة ما يدعم رأيه. فهو لم يَعرِض بصورة جليّة نماذج من القصص القرآني الذي انْتفت عنه الواقعيّة التاريخية، وثبتتْ له خصائص الأسطورة ـ إن كان لهذا النوع وجود في القرآن ـ بل اقتصر على القول بأنّ القرآن نفسه لم

يحرص على أن ينفي وجود الأساطير فيه، وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدّليل على أنه من عند محمد ﷺ، وليس من عند الله. فهو يقول: (وإذا كان هذا ثابتاً فإنّا لا نتحرّج من القول بأنّ في القرآن أساطير. لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصّاً من نصوص القرآن.

واستدلّ، على ذلك بما حكاه القرآن عن مشركي مكّة أنهم وصفوا قصصه (بأساطير الأوّلين). ومن ذلك مثلاً قوله تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٥].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال: ٣١].

ولكنْ ردُّ القرآن على دعوى هؤلاء المشركين ليس إلاّ تكذيباً لِمَا ادّعوا، ودحضاً لما زعموا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٦].

ولا شكّ أنّ في ثبوت نسبة القرآن إلى الله ما ينفي عنه قطعاً أن يكون في قصصه أساطير، والله تعالى يقول:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [آل عمران: ٦٢].

ومن ناحية أخرى فإنه ينبغي تحديد المعنى المراد من قولهم (أساطير الأوّلين). فأساطير: جمع الجمع لسطر وأسطر، ومفرده: سطر. وهو الخط والكتابة. ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦]، أي مكتوباً. فيكون المعنى: أنّ القرآن في زعمهم ممّا كتبه الأوّلون.

ويؤيد هذا الرأي أن الذين زعموا ذلك هم المشركون من العرب.

والعربيّ كان يتصوّر الأشياء كما يتوهم عنده عقله الساذج، ولكنه لا يخترع الأساطير حولها مهما كانت عنده هذه الأشياء غامضة معقّدة. ومن هنا جاء قصصه بعيداً عن الخيالات التي تبدو في أكثر القصص الميثولوجي والأساطير الشعبية لدى الأمم الأخرى: كأساطير اليونان والهنود والفراعنة. فلم يكن العرب يعرفون الأسطورة بهذا المعنى حتى يُحمَل عليه ما حكاه القرآن عنهم.

ولقد حكى القرآن أقوالاً لِمَا لا يَعقِل، كالنملة والهدهد في قصة سليمان:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ
سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى
بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى
ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ
شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ
لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾
[النمل: ١٧ ـ ٢٥].

قال الرّازي تعليقاً على هذه القصة: (إنّ الملاحدة طعنت في هذه القصة من وجوه:

أحدها أنّ هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلّما بكلام لا يصدر إلاّ عن العقلاء، وذلك يجُرّ إلى السّفسطة. فإنّا لوْ جوّزنا ذلك لما أمنّا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا أن تكون أعلمَ بالهندسة من إقليدس، والنحو من سيبويه. وكذلك القول في القملة، ويجوز أن يكون فيهم الأنبياء والتكاليف والمعْجزات! ومعلوم أنّ من جوّز ذلك كان إلى الجنون أقرب.

وثانيها: أنّ سليمان عليه السلام كان بالشّام. فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطفية من الشام إلى اليمن ثم رجع إليه؟

وثالثها: كيف خفِيَ على سليمان عليه السلام مثلُ تلك الملِكة العظيمة مع ما يقال: إن الجنّ والإنس كانوا في طاعة سليمان. وأنّه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكليّة. وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك، تحت راية كل واحد منهم مائة ألف، ومع أنّه يقال: من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى، ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته إلى الشيطان وتزيينه؟

والجواب عن الأول: أنّ ذلك الاحتمال قائم في أول العقل. وإنما يُدفع ذلك بالإجماع. وعن البواقي أنّ الإيمان بافتقار العالَم إلى القادر المختار يزيل هذه الشكوك).

والمتأمّل في الاعتراضات التي أوردها الرازي، والتي قد يَطعن بها على القرآن الملاحدةُ وغيرهم، يجدها قويّة الأثَر، لا يدانيها في قوّة عرضها إجابته عليها بعبارة مقتضبَة لا تفي ولا تقنع. ومن يتصدّى لإيراد مثل هذه الافتراضات، ينبغي أن يكون تصدّيه للإجابة عليها مماثلاً إن لم يكن أقوى، حتى لا يبقى مجال للشكوك والشُّبُهات والمطاعن.

ويرى الدكتور خلف الله أنّ الرازي وغيره من المفسّرين لو درسوا المسألة على أساس من الخلْق الفنّي للشخصيات، وأنّها ما

وُجدت إلاّ لتؤدّي أدوارها في القصة لمَا وقعوا في تلك الحيرة، ولمّا كان دفاعٌ واتّهام.

علي أنّ المسألة قد تحتاج في نظره إلى شيء من الإيضاح، وهو أنّ بعض الأدوار الرئيسية في القصص الحديث تُسنَد إلى الحيوانات، ويكون الحيوان في مثل هذا القصص هو الشخصية الرئيسية التي تتوجَّه نحوها الأنظار، وتلتفت إليها القلوب والأسماع. ولعلّنا لم ننس بعدُ شخصية (لاسي) ذلك الكلب الذي يضطلع بالبطولة في قصة «لاسي يعود إلى منزله». وهي بطولة تتجلّى فيما يرتسِم على وجهه من انفعالات إنسانيّة، وفيما يحرِّكه من عواطف بشرية، إذْ يتحرّك (لاسي) في القصّة كما يتحرك الإنسان النّابه الممتاز الذي يملك رقّة عواطف البشر ودقّة إحساسهم، ويمتاز بما يمتاز به النّابهون من ذكاء.

وهذه المسألة لا تقتصر على الأدب الحديث. ففي الآداب القديمة ألوان وألوان. ويكفينا من الأدب العربي كتاب (كليلة ودمنة). ففيه المثُل الصالحة للدلالة على ما يقوم به الطَّير والحيوان من عمل، وما ينطقان به حِكَم وأمثال.

ثم يقول: «أعتقد أنّ السبب في ما وقع فيه هؤلاء المفسّرون من حيرة، هو اضطرابهم بين ما يشاهدون ويلمسون، وبين ما يذهب إليه بعضهم من حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات».

ورَأيُ الدكتور خلف الله في هذه القصة مردود من وجوه:

١ ـ أنّه يراها كالأسطورة وإن لم يصرّح بذلك، لأن الأساطير القرآنيّة في رأيه هي القصص التي لم تقع، وذلك لاستحالة أن يصدّق العقل بوقوع مثلها، «وإذا ما قال المستشرقون أنّ بعض القصص القرآني كقصّة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بُنِيت على بعض الأساطير؛ قلنا: ليس في ذلك على القرآن من بأس. فإنما هذه السبيل سبيلُ الآداب العالَمية، والأديان الكبرى. ويكفينا فخراً أنّ كِتابنا الكريم قد سنّ السُّنن، وقعّد القواعد، وسبق غيرَه في هذه الميادين».

فإذا كان يعتبر قصة النملة والهدهد أسطورة، ويعتبر حديثهما من باب الرّمز كما يجري على لسان الأسد والثعلب وابن آوى في كتاب «كليلة ودمنة» فإنّما هو رمز إلى الواقع، لا إلى الخيال الأسطوري. وما اتّخذ القاصّ في هذا الكتاب من الحيوانات ستَاراً لِبَثّ أفكاره ومبادئه إلاّ نتيجة لظروف سياسية أو اجتماعية أو نفسية لا تسمح لمرء أن يصرِّح بما يريد، أو يعبِّر عمّا يُحسّ. ويكفي أن يتصوّر القارىء أشخاصاً مكان حيوانات لتبدوَ له القصة واقعيّة، بل مُغرِقة في الواقعيّة، في حين أنّ الرّمزية في الاصطلاح الأدبي الحديث جعْلُ الكلمة كالصّدى الآتي من بعيد. فهي لا تُقصَد لذاتها ولا تُستعمَل للمعنى الذي وُضِعت له، ولكن

لعلاقتها بحقيقة أخرى تثيرها هذه الكلمة في النفس. «وقد جعل الرّمزيّون لكل ظاهر نفسيّة أو فزيولوجيّة علاقة بالعالم المثالي. فالنهر يرمز إلى القدَر، والشمس الغاربة ترمز إلى المجد الغارق وهكذا...» فالرّمزيّة في مفهومها الحديث هي إلى المثاليّة والغموض أقرب منها إلى الواقعية والوضوح. وهي بهذا الاعتبار تتجاوز عقول الذين جاء القرآن لهدايتهم، وخاطبهم بما يفهمون.

ومن ناحية أخرى فإنّه لا داعي لأن تستعار في بعض القصص القرآني كائناتُ غير إنسانية، لتحلّ محلّ الإنسان في دوره القصصي، كما نجد ذلك في كتاب كليلة ودمنة مثلاً.

٢ ـ ما ورد في القصة من ضبط للأحداث ومواقعها، ومن دقّة في حكاية الأقوال، ثم توجُّهُ سليمانَ إلى الله بالدعاء، كي يُلهمه شكر نعمته عليه بتعليمه مَنطِق الطير، وفهمه ما تريد النملة، وانتهاءُ القصة بنتيجة معيّنة، وهي إيمان ملكة سبإ بالله، وإسلامها مع سليمان لله ربّ العالمين، بعد أنْ أعيتْها كلّ الحيل للإبقاء على مُلْكها، ولربّما رأت من عجائب إحضار عرشها ما أدهشها. أفَيَجوز بعد هذه الأدوار العظيمة، والتصرّفات العجيبة، تشبيهها بقصة الكلب (لاسي)، أو بقصص «كليلة ودمنة» التي لم يكن من بين أشخاصها إنسان؟

ويزيد هذا التشبيه المفتعَل بُعداً عن الحقيقة ما نجد أثناء

عرض القصة من تدخُّل الخالق سبحانه بذكر ما صدّ هذه المِلكة عن عبادته:

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النمل: ٤٣].

قال النَّووي في تفسيره لهذه الآية: «وهذا من كلام الله تعالى: أي ومَنَعَ بلقيس عن إظهار الإسلام عبادتُها القديمة للشمس...».

وقال النسفي: «أيْ قَالَ الله تعالى: وصدّها قبل ذلك عمّا دخلتْ فيه ضلالُها عن سواء السبيل».

فهل يجوز بعد ذلك أن نحمل بعض المواقف في القصّة على تمثيل أو التخييل أو الرّمزية؟ إنّ القَول بهذا خروج بالقصة من هدفها، وهو: إظهار القدرة الإلهية التي تتحدّى الإنسان مهما بلغ من علم وحكمة ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية: ٦].

وما الذي يحُول دون القول بأنّ أحداث هذه القصّة من الخوارق أو المعجزات؟ سيما وقد أعلن سليمان:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل: ١٦].

وليس هذا الإعلان إلا إشهاراً لنعمة الله، واعترافاً بفضله، ودعوة الناس إلى التصديق بهذه المعجزة.

فعلاقة الارتباط بين هذه القصة القرآنية وما يشبهها من القصص الموضوع، لا تعني بالضرورة حمل الأوّل على الثاني على سبيل القياس، وذلك لعوامل مختلفة تمنع من المقايسة.

والخلط بين هذه العوامل يجعل الاستدلال دائرياً لا يؤدِّي إلى رأي مقنع وتقرير حاسم.

٣ ـ إنّ الفنّ القصصي في الأدب لا يصحّ أن تُحَكَّمَ مقاييسُه بصورة آليّة مطلقة في القرآن. فهو ليس كتاب أدب وقد ابتدع فيه الخالق منطقة، كما ابتدع فنّه. والقصص القرآني قصص دينيّ قبل كل شيء. فلا يمكن النَظر إليه من زاوية أدبيّة صرف، وقد جاء لخدمة أغراض متنوّعة، فلا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظرية واحدة.

٤ ـ ولِمَ لا يتصوّر الفكر أنّ الله ألْهم هذا الهدهد ليُعرَف سليمان فيقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ فيتصاغر إليه علمه، ويكون ذلك لطفاً به في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء، ولا يرى غضاضة في أن يأخذ عمّن هو دونه، ولو كان من غير نوعه؟ فمن الأقوال المشهورة: الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها أنّى وجدها.

ثم إنّ في هذه الآية دليلاً على أنّ الأنبياء تخفى عليهم أمور يعرفها غيرهم.

وهكذا كشف الهدهد لسليمان سرّاً نَدَّ عنه أمرُه، واختفى خبره، ولم يصل إليه علمه».

الفصل التاسع

بطلان القول:

إن القصة القرآنية قصة شعبية



إذا كان **خلف الله** قد قال ما قال، فكان صدى آخر لما نعالجه هنا في هذا الكتاب، فإن كاتباً آخر ربط القصص القرآني بالرواية الشعبية في البيئة العربية. وقد تصدى التهامي نفرة **للحداد**، في كتابه: «**القرآن والكتاب**»، فعرض وجهة نظره وتولى الرد عليه، فقال:

«يرى الحدّاد أنّ القصص القرآني من التاريخ الشعبيّ الذي كان متداوَلاً في بيئته العربية والكتابية، ونقلَه القرآن بحسب العقلية الشعبية والبيئة البدائية التي نزل فيها بأسلوب أدبيّ، لا بأسلوب تاريخيّ.

فهو في هذه النقطة متفق مع الدكتور **خلف الله**، ويستدلّ بما سبق من كلامه.

وفي قضية التكرار يتساءل: هل إنّ اقتصار الوحي الجديد على عشر روايات مكررة عشرات المرات بأساليب متنوعة، هو من إعجاز الفنّ وسحر البيان؟ فنحن نجد في القصص القرآني وأساليبه إعجازاً. وغيرنا يجد فيه عجزاً. كلٌّ بحسب عقليته وثقافته، ويستدل على ذلك بقول لأحد الغربيين لم يذكر اسمه.

ولكن هذا (الغيْر) إن لم يكن متمكِّناً في العربية وأساليبها. وفنون القول فيها، لا يملك حاسّة الذوق، ولا مَلَكة النَّقد في هذا المجال، فلا يُقْبَل أنْ ينتصب حَكَماً فيما يتجاوزه من أسرار الإعجاز البياني، بل ليس له أن يحكم على ما تقصر عنه مداركه اللغوية والبلاغية مهما كانت ثقافته.

ويرى (الحدّاد) أن في ما تكرر من قصص القرآن تعارضاً، فيقول: (ولا ننسى أنّ هذا يتمثّل أكثر من ثلثي القرآن، وفي اعتباره من المتشابه ما فيه من شبهة يزيدها مرارة ما فيه من شبهة التعارض).

والتعارض عنده نوعان: تعارض بين القرآن والكتاب المقدّس، وتعارض بين آيات القرآن نفسها.

أمّا الأوّل فيفسّره بأن مصادر القصص القرآني هي البيئة الحجازية، عربية وكتابية، وهذا القصص المتداول هو من التاريخ الشعبي الذي يختلف عمّا في الكتاب المقدّس، ويردّ على من يعلّل هذا التعارض بتحريف التوراة والإنجيل، ويعتبر ذلك من التفسير الرخيص المتهافت، ويستدلّ بما يقول أهل الكتاب: ها أنّ نُسخ التوراة والإنجيل باقية هي هي على الرق من قبل القرآن بمئات السنين، كما يستطيع كل باحث أن يتحقق ذلك في متاحف العالم، ولم يكن جميع أهل الكتاب قبل القرآن بمئات السنين أنبياء، حتى يشعروا بظهور النبي الأمِّي في مكة، وتنزيل القرآن عليه معارضاً لما عندهم في التفصيل حتى يحرّفوه سلفاً.

وأمّا النوع الثاني من التعارض بين قصص القرآن نفسه ــ حسب زعمه ــ فقد اعتبر هذا القصص (من المتشابه في القرآن، لا من محكم التنزيل) ونقل قولاً لدروزة جاء فيه: وقد بقيت مسألتان قد تبْدُوان مشكلتين:

أولاهما: ما إذا كان ما احتواه القرآن من قصص صحيحاً في جزئياته ووقائعه وحقائق حدوثه.

وثانيهما: ما بين بعض القصص القرآنية المتصلة بنبي أو أمّة من بعض الخلاف، مثل ذكر وقت ما كان يقع على بني إسرائيل من فرعون، من قتل الأبناء واستحياء النساء، حيث ذكر هذا الوقت في سورة أنَّه قبل بعثة موسى، وفي سورة أنَّه بعد بعثته، ويُجيب على هذا الإشكال الذي أورده جواباً عاطفيّاً فيقول:

«ونحن كمسلمين نقول: إن كل ما احتواه القرآن حق وواجب الإيمان، وإنّا آمنا به (كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنَا)؛ كما أنّنا نقول بوجوب ملاحظة كون القرآن في قصصه إنَّما استهدف العظة والتذيكر فحسب، لا التاريخ، وهما لا يتحققان إلا فيما هو معروف ومسلم به إجمالاً من السامع: وإنّ هذا أيضاً من الحقّ الذي انطوى فيه حكم التنزيل، وبوجوب الوقوف من هذه القصص عند الحدّ الذي استهدفه القرآن، وعدم الاستغراق في ماهيتها على غير طائل ولا ضرورة، لأنّها ليست ممّا يتّصل بالأهداف والأسس».

ثمّ إن نسبة الكمّ التي عيّنها (الحداد) للقصص من القرآن، فيها إفراط ومبالغة، إذ هي دون ذلك.

أمّا رأيه في التعارض بين قصص القرآن والكتاب المقدّس، فهو رأي مغرض، وأقلّ ما يترتب عليه التشكيك في صحة ما ورد في القرآن، على أساس أنّ نُسخ التوراة والإنجيل ــ كما يدّعى ــ باقية كما هي، وكما أنزلها الله، لم يدخل عليها أي تحريف أو تغيير، وهذا غير صحيح.

ومن الأدلة التاريخية على هذا التحريف أنّ التوراة وكُتب الأنبياء تعرضت إلى أحداث جسام نتيجة الحروب والهجمات التي تعرّض لها اليهود أنفسهم، فقد أحرقت أوشليم وهيكلها وما تحويه من أموال وذخائر على يد نبوخذنصر ملك بابل الذي سار إلى بيت المقدس، وفتحه عنوة، وقتّل بني إسرائيل وسباهم وحملهم إلى أرض بابل، وأخذ التوراة، وما كان في الهيكل من كتب الأنبياء، فصيّرها في بئر وطرح عليها النار.

وتشير التوراة نفسها إلى هذا الحدث مرات كثيرة وإن كانت لا تشير إلى إحراق التوراة.

يقول البيروني: إنّ عند كل واحد من اليهود والنصارى نسخة من التوراة تنطبق بما يوافق قول أصحابها. فالتي عند اليهود زعموا أنها هي البعيدة عن التخليط، والتي عند النصارى تسمّى توراة السبعين...

وليست للتوراة هاتان النسختان فقط ولكن لها نسخة ثالثة عند السامرة.

فالتوراة إذن لم تسلم من الأحداث التي تعرّض لها اليهود عامة، وأورشليم خاصة، ولذلك يميل المسلمون إلى الرأي بأن اليهود تعمّدوا تحريف التوراة، ولقد قام البيروني أيضاً بمناقشة عبارات من التوراة من (سفر أشعيا) وغيره مستشهداً على أن التوراة قد تنبّأت بظهور المسيح ومحمد عليهما السلام، ثم يتّهم عناد اليهود وإنكارهم هذا الأمر نتيجة تحريفهم للتوراة.

كما أنّ التعارض المزعوم بين قصص القرآن إنّما هو وهْم أوقعت فيه النظرة السطحيّة والحكم المستعجل.

وأمّا ما أورده الأستاذ دروزة من شبهة اختلاف الوقت الذي كان فيه فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل، فإنه يقصد بذلك ما ورد في سورة القصص من أنّ فرعون كان يرتكب هذا الجرم الفظيع قبل أن يولد موسى عليه السلام كما يدلّ عليه سياق هذه الآيات:

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص: ٣ ـ ٥].

ومرة ثانية بعد بعثته كما تشير هذه الآيات:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وبالتأمّل يتبيّن ألاّ تعارض بين ما ورد من قصة فرعون في السورتين، فإنّ إقدامه على تقتيل الأبناء وقع مرتين: قبل ميلاد موسى بدافع الخوف من تحقيق الرؤيا التي عبّرها له الكهنة، ثم تجدّد بعد بعثته بدافع الانتقام وإدخال الهلع في نفوس المؤمنين.

ومن يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين فإنّما يعني تناقضاً، في حين أن التناقض معدوم، لانعدام شروطه المتّفق عليها عند علماء المنطق وهي الاختلاف بين قضيتين في الكمّ والكيف والجهة، والاتّفاق بينهما في وحدات ثمانية: الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والشرط والقوّة والفعل والجزء والكلّ.

وإذا أمعنّا النّظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصّة القرآنية الواحدة على ضوء هذه القاعدة المنطقيّة، فلا بد أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التناقض إلا بتوفّرها معاً، وإذن فلا تناقض».

الفصل العاشر

المقارنات المنهجية
في
دراسة القصة القرآنية

خصوصية القصة التوراتية والقصة القرآنية

يحلو لبعض الكتّاب المحدثين أن يعقدوا مقارنات دينية أو فنية بين تأليف القصة التوراتية وتركيب القصة القرآنية، وبادىء ذي بدء، فإن أية مقارنة بين التوراة والقرآن الكريم، لاغية ولا أساس لها. هناك عناصر مشتركة بين القصة التوراتية والقصة القرآنية، ولكننا لا نفترض أبداً أن يتطابق النصان في الإخبار والسرد. فالقصة التوراتية جاءت بلسان غير عربي، وخاطبت عقلية جماعة بشرية معنية، في أول نزولها، أو تلقيها، ثم مرت عليها عدة قرون خرجت فيها عن أصلها، واتخذت طريق الرواية الشفوية، وهنا نجد توافقاً في العناصر واختلافاً في التفاصيل وطريقة الايصال.

ولا يعنينا بعد ذلك في مجال المقارنة تلك التشويهات التي لحقت بالقصة.

أما الناحية الفنية، فإن طبيعة القصة القرآنية وطابعها خارجان عن الصفة البشرية، فهي إيحاء إلٰهي لم يعتره تحريف، بزيادة أو نقصان، وقد جاءت في لغة عربية متميزة بين لغات البشر بصرفها ونحوها وبلاغتها.

ومن ثم، فإن أية مقارنة محتملة، عليها أن توجد فصلاً بين النوعين، وليس من المرغوب فيه إيجاد التطابق الحرفي بين نص التوراة والنص القرآني، فعلى سبيل المثال جاء في التوراة: آدم وحواء في الجنة.

«أوصى الرب آدم قائلاً من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً... لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت..»،

«فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض.. فطرد الإنسان»[1].

وهذان النصان، يتوافقان معنى، مع بعض ما ورد في الآيات التي ذكرت وجود آدم وحواء في الجنة ثم خروجهما منها، ولكنهما لا يتطابقان صياغة.

قابيل وهابيل

«نظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قابين لم ينظر».

«قابيل قام على هابيل فقلته»[2].

ويقابل هذين النصين ما جاء في القرآن الكريم عن تقديم أحد ولدي آدم قرباناً، وتقبل الله له، ولم يتقبل من الآخر، ثم

---

(١) تكوين، الإصحاح الثالث ص ص ٦ ــ ٧.

(٢) تكوين، الإصحاح الرابع ص ٨.

قتل ذلك الآخر لأخيه، إذا قلنا إن: «نظر ولم ينظر» تعنيان المجاز، وليس حقيقة النظر.

وإنه من الثابت تاريخياً أن الرسول ﷺ كان أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، ولم يطلع على كتاب سابق عليه مشافهة ولا رواية. والواضح من القرآن الكريم أن القصص المتعلق بموسى عليه السلام وداود وسليمان ويوسف، وكذلك قصص الخلق والطوفان وابني آدم، نزلت في العهد المكي، قبل أي احتكاك مباشر ببني إسرائيل، ومن الغريب جداً، أن وثنيِّي مكة كانوا يسمّون هذه القصص: «أساطير الأولين»، أي إنهم لا يؤمنون بها، وهي غريبة عليهم، الأمر الذي يعني وجود جالية يهودية في مكة، أو نصرانية، غير ذات تأثير، مما ينفي أي اطلاع غير مباشر على ما عند الأحبار والرهبان، ومن أسلم من النصارى لم يكن على ثقافة بهذه الأخبار.

فإذا عدنا إلى مقارنة ما جاء في التوراة بما جاء في القرآن الكريم، نجد شبهاً في عناصر محدودة قليلة جداً، بحيث تجعل المرء يقطع بأن وصف القرآن الكريم للتوراة بأنها محرفة مزيفة صحيح جداً، فهناك عناصر شبه ضئيلة، وهناك مجالات اختلاف واسعة بعيدة.

المقارنات المنهجية في دراسة القصة القرآنية

إن الخطة التي ندعو لها، ونشدد على اتباعها، هي التمييز

بين الخبيث والطيب: الخبيث الذي دسته التوراة المحرفة، والطيب الذي جاء خالصاً من دون شوائب في القرآن، لنتحدث عن قصة آدم وحواء والطوفان، ولكن لنفرق بين إضافات اليهود في توراتهم المحرفة، وحقائق القرآن وتفاصيله.

ونقدّم للحقيقة المجردة، وكمنهج كان أولى بالاتباع والدراسة والمقارنة، الطريقة المثلى التي درس فيها نفرة في قصة يوسف عليه السلام، وهي القصة المشتركة في كل من التوراة والقرآن الكريم، يقول في كتابة: «**سيكولوجية القصة في القرآن**»، ص ص ٥٢١ ــ ٥٤٢:

بين القرآن والعهد العتيق

الابتكار في القصّة ليس في خلق موضوع جديد لم يُسبق إليه، فقد يكون الموضوع مألوفاً لدى النّاس أو لدى طائفة منهم، ولكن بما يُشيع فيه الفنّ من آيات إبداعه، ويسكب فيه من رُوحه. إذ: «ليس الفنّ في الهيكل، بل في الثوب الجديد الذي يُلبسه الفنّان للهيكل القديم».

فموضوع قصة يوسف ــ وإن لم كان جديداً عند أهل الكتاب ــ هو من أنباء الغيب بالنسبة للرسول ﷺ: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ»، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: ١٠٢].

ولكن عند المقارنة يتّضح الفرق بين القرآن والعهد العتيق، سواء في المدخل إلى هذه القصة، أو في أسلوب عرض الأحداث، أو في الأحداث نفسها.

فالقرآن يضع القصّة في إطار ديني نفذ منه أشعة روحيّة إلى النفس ببيان العبرة الأخلاقيّة والتربوية التي من أجلها أنزل الله القصة كما سيأتي بيان ذلك.

أما الأحداث فيها، فهي مرتّبة ترتيباً منطقياً تجري في تناسق وتسلسل، ونتائجها مبنية على مقدّمات يتقبلها العقل

ويطمئن إليها إنه يحرِّك المشاهد، ويدير الحوار في صدق وحرارة، فيُبرز سمات النبوّة في يعقوب بقدر ما يُبرز صفات الأبوة فيه، ويعرِّف بيوسف كنبيّ اجتباه الله، وآتاه العلم والحكمة، ليعمل جاهداً على تخليص النفوس من آفات الباطل وأوشاب الشرك، وحمايتها من غائلة المجاعة.

ويمثّل بامرأة العزيز المرأة التي يغلبها الهوى، فيسدّ عليها منافذ الحكمة، ثمّ يستيقظ فيها الضمير بوخز النّدم، فتُقر بخطيئتها، وتُقلع عن ذنبها، وتثوب إلى رشدها.

أمّا العهد العتيق فقد وضع القصّة في إطار عائلي، يحمل طابع السرد التاريخي المجرّد، دون أن يشير كالقرآن إلى ما وراء الأحداث من عِظات بالغة، فيجعل منها صوراً حية للإنسان، حين يطغى عليه الحسد، فيكيد لأخيه، وينصب له شراك الشرّ، وينكل به؛ وحين يأخذه الهوى، فيدفع به إلى مهاوي السوء، ولكنه في النهاية يتعثّر، فيفتضح أمره، وتنكشف حقيقته.

ثمّ تصوّر هذه الأحداث الجانب المقابل، فتُبرز شرف الإنسان وسموّ نفسه حين يستنير بنور الله، ويتسلّح بالإيمان، فيكون طيّب السريرة، نبيل المقاصد، صبوراً في الملمّات، لا ييأس من رحمة الله، ولا تغيّر طباعه الأحن والشدائد، لإيمانه بأنّ الحق قوة لا تقهرها نزوات الأهواء، ولا صولة البغي، وأنّ الله لن يتخلّى عن نصرة من يلتجىء إليه مخلصاً مهما طال الأمد.

وإذا تعرض «العهد العتيق» إلى بعض الغيبيّات، فإنه ليثير الدهشة والاستغراب أكثرَ ممّا يُذكى الإيمان، ويُحيي ما بالنفوس من نوازع الخير؛ وذلك لما أتى به من تشابيه ماديّة غامضة.

القرآن الكريم	العهد العتيق
سورة يوسف	سفر التكوين
٣ ـــ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذا القُرآنَ، وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لِمَن الغافِلين	٧ ـــ رأيتُ كأنّا نحزم حزماً في الصحراء، فإذا حزمتي وقفتْ ثمّ انتصبت فأحاطت بحزمكم وسجدتْ لحزمتي
٤ ـــ إذْ قالَ يُوسُفُ لأبيه: يَا أَبَتِ! إنِّي رأيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَباً والشَّمْسَ والقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ.	٨ ـــ فقال له إخواته: ألعلّك تملك علينا، أو تتسلّط علينا؟ وازدادوا أيضاً حَنقاً عليه لأجل أحلامه وكلامه.
٥ ـــ قَال: يَا بُنَيِّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً. إنّ الشَّيْطَانَ للإنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ.	٩ ـــ ورأى أيضاً حلماً آخر، فقصّه على إخوته، وقال: رأيتُ حلماً أيضاً: كأنّ الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي.
	١٠ ـــ وإذا قصّه على أبيه وأخوته زَجره أبوه، وقال له: ما هذا الحلم الذي رأيتَه؟ أترانا نجيء أنا وأمّك وإخوتك فنسجد لكَ إلى الأرض؟

إنّا لا نجد في القرآن إلاّ رؤيا واحدة، ولا نجد ما يبرّر هذا الزجر، أو يفسّر الاستفهام الإنكاري الذي جاء في رواية «العهد العتيق» على لسان يعقوب، وهو النبي الأب الذي ما ينبغي لمثله أن يحسد أحداً من أبنائه على ما سيمنّ الله به عليه من منزلة سامية، ومقام رفيع، ولا سيمّا يوسف أحبّ بنيه إليه...

١١ ـ قَالُوا يَا أَبَانَا ما لَكَ
لاَ تأْمَنَّا
عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ؟
١٢ ـ أرسِلْهُ مَعَنَا غَداً
يَرْتَع
ويَلْعَبْ وإنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.
١٣ ـ قَالَ: إِنِّي لَيَحْزِنُنِي
أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ. وأَخَافُ أَنْ
يَأْكُلَهُ الذِئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ.
١٤ ـ قَالُوا: لَئِنْ أكَلَهُ الذِّئْبُ
ونَحْنُ عُصْبَةٌ إنَّا إذاً لَخَاسِرُونَ
١٥ ـ فَلَمَّا ذهَبُوا بِهِ وأَجْمَعُوا

١٢ ـ ومضى إخوته ليرعوا
أغنام
أبيهم عند شكيم.
١٣ ـ فقال إسرائيل[1]
ليوسف:
إنّ إخوتك يرعون عند شكيم.
هَلُمّ ابعثك اليوم. قال:
ها أنذا.
١٤ ـ فقال له: امضِ لتفقد
سلامة إخوتك، وسلامة
الغنم، وائتني بالخبر...
١٨ ـ فلمّا رأوه عن بُعدٍ قبل أن
يقرب منهم ائتمروا عليه
١٩ ـ فقال بعضهم لبعض: ها

---

(١) إسرائيل: لقب على يعقوب. وأصله كلمة عبرانية تشير إلى اختصاص يعقوب بجانب الله.

أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَاتِ الجُبِّ	هو صاحب الأحلام مقبل.
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ	
بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ	

ويزداد الاختلاف بين الرِّوايتين اتّساعاً وعمقاً في وصف حالة يعقوب، لمّا بلغه نبأ الفجيعة، ووقوع المحذور بفقد أعزّ ولد عليه.

فالقرآن يصوّر لنا صدق تنبُّه بما رَابه من أبنائه، ورُبّما كشف له الغيب عن مكروه سيحصل، ولكن الحذر لا يمنع القدَر. فلم يجد بدًّا من الاستسلام للقضاء، حتى انجلى الغيب عن مأساة

القـرآن الكريم	العهد العتيق
١٦ ـ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً	وبعثوا بالقميص الموشَّى،
يَبْكُونَ.	فأنفذوه إلى أبيهم، وقالوا:
١٧ ـ قَالُوا: يَا أَبَانَا إِنَّا	وجدنا هذا، أقميصُ ابنك هو؟
ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وتَرَكْنَا يوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا،	٣٣ ـ فأثبته وقال: قميص ابني
فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ،	وحشٌ ضَارٍ أكله!
وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ.	افترس يوسف افتراساً!
١٨ ـ وجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ	٣٤ ـ ومزّق يعقوب ثيابه،
بِدَمٍ كَذِبٍ. قَالَ: بَل سَوَّلَتْ	وشدّ مسحا على حقويْه، وناح
لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً. فَصَبْرٌ	على ابنه أياماً كثيرة.

جَمِيلٌ. واللَّهُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ.

٢٣ ـ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي
بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وغَلَّقَتِ
الأَبْوَابَ، وقَالَتْ: هَيتَ
لَكَ! قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ! إنَّهُ
رَبِّيَ أَحْسَنَ مَثْوَايَ. إنَّهُ لاَ
يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

٢٤ ـ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وهَمَّ
بِهَا، لَوْلاَ أنْ رَأَى بُرْهَانَ
رَبِّهِ.
كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ
السُّوءَ والفَحْشَاءَ. إنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ.
٢٥ ـ واسْتَبَقَا البَابَ وَقَدَّتْ
قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ، وأَلْفَيَا
سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ، قَالَتْ:
مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً

٣٥ ـ وقام جميع بنيه وبناته
يعزّونه، فأبى أن يتعزّى وقال:
إني أنزل إلى ابني نائحاً
إلى الجحيم.
٧ ـ وكان بعد هذه الأمور أنّ
امرأة مولاه طمحت عينُها إلى
يوسف وقالت: ضاجعْني.
٨ ـ فأبى، وقال لامرأة مولاه:
هو ذا مولاي لا يعرف معي
شيئاً ممّا في البيت،
وجميع ما هو
له جعلَه في يدي.

٩ ـ وليس في هذا البيت شيء
فوق يدي، ولم يُمسك
عَنّي شَيْئاً غيرَك، لأنكِ
زَوجته، فكيف أصنع هذه
السيئة العظيمة، وأخطىء إلى
الله؟

إلاَّ أنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.
٢٦ ــ قَالَ: هِيَ رَاوَدَتْنِي عن
نَفْسِي وشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا
إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ
فَصَدَّقَتْ وهُو مِنَ الكَاذِبِينَ.
٢٧ ــ وإنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ
مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
الصَّادِقِينَ.
٢٨ ــ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ
مِنْ دُبُرٍ قَالَ: إنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ
إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ.
٢٩ ــ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا،
وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إنَّكِ كُنْتِ
مِنَ الخَاطِئِينَ.
٣٠ ــ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ:
امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ
نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا. إنَّا
لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ.
٣١ ــ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

١٠ ــ وكلّمته يوماً بعدَ آخر،
فلم يقبل منها أن ينام بجانبها
ليكون معها.
١١ ــ فاتّفق في بعض الأيام أنه
دخل البيت ليتعاطى أمرَه، ولم
يكن في البيت أحد.
١٢ ــ فأمسكت بثوبه قائلة:
ضاجعْني
فترك رداءَهُ بيدها، وفرّ هارباً
إلى الخارج.
١٣ ــ فلمّا رأتْ أنّه قد ترك
رداءه بيدها وهرب خارجاً.
١٤ ــ صاحتْ بأهل بيتها،
وقالت لهم:

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ
مُتَّكَئاً، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ
مِنْهُنَّ سِكِّيناً، وَقَالَتِ اخْرُجْ
عَلَيْهِنَّ. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ:
حَاشَ
لِلَّهِ! مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا
إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ.
٣٢ ــ قَالَتْ: فَذَلِكُنَّ الَّذِي
لُمْتُنَّنِي فِيهِ. وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ
عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ. وَلَئِنْ
لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ
لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ.
٣٣ ــ قَالَ: رَبِّ السِّجْنُ
أَحَبُّ
إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ.
وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ.
٣٤ ــ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ
فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ

انظروا كيف جاءنا برجل
عبْرانيّ ليتلاعب بنا؟ أتاني
ليضاجعني. فصرختُ بصوت
عال.
١٥ ــ فلمّا سمعني قد رفعتُ
صوتي
وصرختُ، ترك رداءه بجانبي،
وفرّ هارباً إلى الخارج.
١٦ ــ ووضعتْ رداءَه بجانبها
حتى قدم مولاه إلى بيته
١٧ ــ فكلّمته بمثل هذا الكلام
وقالت: أتاني العبد
العبراني الذي
جئتنا به ليتلاعب بي.
١٨ ــ وكان عندما رفعتُ
صوتي
وصرختُ أنْ ترك رداءه بجانبي،
وهرب خارجاً.

١٩ ــ فلمّا سمع مولاه كلام
امرأته الذي أخبرتْه به.

إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

٣٥ ـ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِمَا
رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ
حَتَّى حِينٍ.

قالت: كذا
صنع بي عبدُك!
فاستشاط عليه غضباً.

٢٠ ـ فأخذ يوسف مولاه وأودعه
الحصن حيث كان سجناء الملِك
مقيَّدين. فكان هناك في الحصن.

ففي القرآن يدين الزوج زَوجته لمَّا ثبتتْ لديه براءة يوسف، بينما في العهد العتيق يغضب عليه، ويُودعه السجن. وفي القرآن يَشيع الخبر بين نساء المدينة فتجمعهن امرأة العزيز في بيتها وتأمرُ يوسف بالخروج عليهن، ليرين جماله حتَّى يكففن عن تعنيفها في حبّها. ولكن العهد العتيق لم يذكر من ذلك.

ويحسن أن نقف قليلاً عند هذا المشهد الذي صوّره القرآن لنرى كيف تلتقي رَوعة الدّين بجمال الفنّ؟

لقد كان عرْضاً بديعاً يضرب مثلاً حيّاً في الدّعوة إلى الاستقامة، والتّدرّع بالإيمان في غياهب الضلال التي تزيغ فيها القلوب، والاهتداء بنور اليقين في متاهات الفتنة التي تتهاوى فيها الإرادة، حتى تنتصر الفضيلة على الرذيلة، والوفاء على الخيانة، والتّماسك على الانحلال.

ولكنّها دعوة ضمنيّة تنساب إلى المشاعر في يُسر، وقد كانت فيها الكلمات تصوِّر المشاهد، وتعبّر عن الأحاسيس. كما

كانت اللّمحات والإشارات فيها أبلغ تأثيراً من الخطب الوعظية الطويلة.

فعبارة «هِيتَ لَكَ» وإن لم تكن متداولة في الاستعمال، لكنّ السّياق القرآني أبان عمّا تدلّ عليه من دعوة مشينة، إنها كناية، تُربي على إفصاح، وتلميح أفصح دلالة من تصريح، مع تنزّهٍ عمّا يُستهجَن ذكرُه.

وتُقابلها من ناحيةٍ ردّ الفعل عبارة «مَعاذَ الله» فهي هنا تفيد معارضة الاستجابة لداعية الهوى والغواية، كأشدّ ما تكون المعارضة إباءً، لأنّها ثمَرة الأيمان. وإيمان الأنبياء معرفة بالله وخشية منه. وكلّما ازداد المؤمن بالله معرفة ازداد منه خشية.

ممّا يجدر التنبيه إليه أنّ القرآن لم يُخفِ ما تنزع إليه الطبيعة المادّيّة للإنسان. فكلاهما هَمَّ بالآخر. ولا يُعتبر ذلك زَلّة من يوسف؛ لأنّ ما يعتري الإنسان من ميل نفسي بغير اختياره وكسبه، لا يدخل تحت طائلة التكليف، حتى يبرز بالعزم والفعل، لأنّ فضل الاستقامة في الأديان السّماوية ليس في قتل الغرائز، بل في التّحكّم فيها بمجاهدة النفس، والتغلّب على النزوات.

لذلك لمْ تكن الزلَّة من امرأة العزيز. لأنَّها عزمتْ على ما همّتْ به. أمّا يوسف عليه السلام فقد عصمه الله بما أراه من برهانه، لإحسانه وإخلاصه فكانت صِلته بالسماء أقوى من صلته

بالأرض، رغم تهافت المرأة عليه وهي في سنّ المراهقة، ورغم أنه شبّ في جوّ القصور.

كما أنّ القرآن لم يُخف من هذا المشهد جانبَ الصُّورة المقابلة. وهي المتمثِّلة في استبداد الهوى برشد امرأة تنعم بين أحضان الترف والعزِّ والسلطان وناهيك افتتاناً بجمال عبدها وخادمها، أنَّها خرجت عن طبع أنوثتها في ادّلالها وتمنُّعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها. ولكنه يعتزّ عليها بالديانة والأمانة، والترفُّع عن الخيانة.

قال ابن مسعود: «المرأة حبالة الشيطان، والشباب شُعبة من الجنون، وخيرُ ما يُلقى في القلب اليقين».

ومجاهدة النفس خير واق من السوء والفحشاء، وخير وسيلة لبلوغ القمَم، واحتضان المثُل العليا. فإنّ يوسف عليه السلام قد سُجن ظلماً. ولإخلاصه وأمانته لم ييأس حتى يكفر بالقيم التي يؤمن بها، فيرتمي بين أحضان الرذيلة والإثم اتّقاءً لغضب سيِّدته عليه، بل آثر السجن وعَذابه على حياة التّرف والإثم.

وهكذا فإن الآيتين «٢٣ ـ ٢٤» وهما في منتهى الإيجاز تُلقّنان في حرارة من خلال عرضهما لهذه الحادثة أسمى المبادىء الأخلاقية. وما ذاك إلاّ لأنّ المعاني سُبكت فيها ونضدت بطريقة فنّيّة تترك الخواطر تنساب حُرّة في إطار الخطوط العامّة التي رسمتْها.

والتّداعي الحرّ هو من أثر الفنّ الذي يملك من القوّة ما يُخضع إليه كلّ فكرة، كما أن الإحساس الفنّي يُحدث في النفوس انفعالات، ويُؤسر العواطف، ويشدّها إليه.

وأين بلاغة القرآن وإحكام إيجازه، وجمال أسلوبه وقوة تأثيره، ممّا حكاه العهد القديم عن نفس المشهد الذي عرضتْه الآيتان؟

ويُبتلَى يوسف في محنته الثالثة والأخيرة، فيدخل السجن ــ رغم ما رأوا من براءته ــ مُدّة لم يحدّدوا زَمنها، لأنّ غرضهم أن ينسى الناس قصّته مع امرأة العزيز. هذه القصة التي لاكتْها الألسن كثيراً في الأوساط الشعبيّة آنذاك.

وإذا عجز أهل البيوتات عن صيانة بيوتهم ونسائهم، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء، كلُّ جريمته أنه لم يستجب، وأن امرأة من الوسط الرّاقي قد فُتنت به وشهّرت بحبّه.

ويكاد القرآن والعهد العتيق يتّفقان في عرضهما لأحداث هذا المشهد، لكن التوراة تستغرق أكثر من القرآن في تفاصيل هؤلاء السجينين، بينما ينفرد القرآن بذكر دعوة يوسف وهو في السجن إلى توحيد الله، وبثّ العقيدة الصحيحة.

ويظهرُ جليًّا في هذه الدّعوة لطف مَدخله إلى النفوس، وسيرُه خطوة خطوة في رفق وتُؤدة. ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا . . . ﴾ [يوسف: ٣٧]. ثمّ يتوغّلُ في قلوبهما أكثر، ويُفصح عن دعوته، ويكشف عن فساد

اعتقادهما واعتقاد قومهما بعد ذلك التَّمهيد الطويل: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ ﴾ [يوسف: ٣٩].

وفي هذه المحنة تتجلّى نعمة الله على يوسف بإظهار دلائل نبُوَّته بمَا علّمه ربّه من تعبير الرؤيا، وبما أطلعه من أسرار غيبه.

القرآن الكريم

٣٦ ــ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فتَيَانِ.
قَالَ أحدُهُمَا: إنِّيَ أرَانِيَ
أعْصِرُ خَمْراً. وقَالَ الآخَرُ:
إنِّيَ أرَانِيَ أحْمِلُ فَوقَ رأسِي
خَبْزاً تأكُلُ الطَّيْرُ مِنهُ
نَبِّئْنَا
بِتَأوِيلِهِ إنَّا نَرَاكَ من
المُحْسِنِينَ
٣٧ ــ قال: لاَ يَأتِيكُمَا طَعَامٌ
تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نَبَّأتُكُمَا بتأويلِهِ
قَبْلَ أنْ يَأْتِيَكُمَا. ذَالِكُمَا
مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي. إنِّي تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَومٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وهُمْ
بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.

العهد العتيق

الفصل الأربعون:
١ ــ وكان بعدَ هذه الأمور: أنّ
ساقي مِلك مصر والخبّاز أجر ما
إلى سيِّدهما مِلك مصر.
٢ ــ فسخط فرعون على
خصيّه:
رئيس السُّقاة، ورئيس
الخبّازين.
٣ ــ وجعلهما في حبْس بيت
رئيس الشرطة في الحصن حيث
كان يوسف مسجوناً.
٤ ــ فوكّل رئيس الشرط بهما
يوسف. فاهتم بهما. وأقاما
مدّة في السجن.
٥ ــ فرأيا حلما في ليلة واحدة.

٣٨ ــ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِيَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ،
مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ. ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ
عَلَيْنَا وعَلَى النَّاس، وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.
٣٩ ــ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ
أَأَرْبَابٌ متَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ
اللَّهُ الواحِدُ القَهَّارُ.
٤٠ ــ مَا تَعْبدُونَ مِنْ دُونِهِ
إلاّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
وَآبَاؤُكمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَانٍ. إنِ الحُكْمُ إلاّ
للَّهِ. أمَرَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ.
ذَلِك الدِّينُ القيِّمُ، وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.
٤١ ــ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا
أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً.
وأمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأسِهِ. قُضِيَ الأمْرُ
الذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ.

٦ ــ فدخل عليهما يوسف
بالغداة، فإذا هما قلِقان:
٧ ــ فسألهما وقال: ما بال
وجوهكما مكتبئة اليومَ؟

٨ ــ فقالا له: رأينا حلماً،
وليس لنا من يعبِّره. فقال لهما
يوسف: أليس الله علّمني التعبير؟
قصّا عليّ!
٩ ــ فقصّ رئيس السّقاة حلمه
على يوسف، وقال له: رأيت
كأنّ جفنة كرم بين يديّ
١٠ ــ وفي الجفنة ثلاثة قضبان،
وكأنّي بها أفرعَتْ وصارت عِنبا

١١ ــ وكانت كأس فرعون في
يدي. فأخذتُ العِنب وعصرتُه
في كأس فرعون، وناولت
الكأس لفرعون.

١٢ ــ فقال له يوسف: هذا
تعبيره: الثلاثةُ قضبان هي ثلاثة
أيام.
١٣ ــ بعد ثلاثة أيام يَرفع
فرعون رأسَك، ويردّك إلى
منزلتك، ويتناول فرعون كأسَه
كالعادة الأولى حين كنتَ ساقيَه.
١٤ ــ إنّما إذا جاء أمرُك
فاذكرْني في نفسك، واصنع
إليّ رحمة، وأجْرِ ذكري لدى
فرعون، وأخرجْني من هذا البيت
١٥ ــ لأني قد خُطفت من أرض
العبرانيين. وهاهنا طرَحوني
أيضاً في هذا الجُبّ، من غير
أنْ أفعل شيئاً.
١٦ ــ ولمّا رأى رئيس الخبّازين
أنه قد عبّر له بخيْر، قال
ليوسف: رأيت أنا أيضاً في حلم:
كأنّ ثلاث سلال حواري على
رأسي.
١٧ ــ وفي السلّة العُليا من جميع

طعام فرعون ممّا يصنعه
الخبّاز، والطيرُ تأكله من السلّة
من فوق رأسي.
١٨ ــ فَأجابَ يوسف وقال له:
هذا تعبيره: الثلاث السّلال
هي ثلاثة أيام.
١٩ ــ بعد ثلاثة أيام ينزع فرعونُ
رأسَك عن بدنك، ويعلّقك
على خشبَة، فتأكل الطير لحمك.

ويمنّ الله على نبيّه يوسف جزاء صبره بعدَ إن لبث في السجن بِضْع سِنين، فيُرى ملكُ مصر رؤيا حيّرتْه، ويطلب تأويلها من الكهَنة، ولكنهم عجزوا، وإذا بساقيه يتذكّر وصية يوسف إذ كان معه في السجن، بأن يَذكُره عند سيّده ويتمّ ذلك، ويرسله الملك إليه وهو في السجن ليعبِّر له الرؤيا، ولمّا تبيّن للملك براءته من كلّ ما اتُّهِمَ به، وتبيّن له مدى علمه في تأويل الأحلام، وقع في نفسه احترامه وحبُّه، فأخرجه من السِّجن، لا ليُطلق سراحه فحسب، بل وليكرمه ويجعله بمكان المستشار والصدّيق. ولمَّا أيقن يوسف أنّ سلوكه الحميد صار مَبعث الثقة فيه والاطمئنان إليه، والحرص على استرضائه؛ رأى أن يصدع برغبته لدينه. فطلب إليه أن يستعمله على خزائن مصر. أي: كوزير للماليّة. ولم يكن قصده الأثَرة والانتهازيّة، بل لينهض بالواجب

في أشدّ أوقات الأزْمة؛ شعوراً منه بأنَّه أقدر النَّاس على إنقاذ مصر من أزْمة المجاعة التي ستحلّ بها في سِني الجدب حسب تأويله لرؤيا الملك، ودعوة النَّاس في البلاد إلى نبذ الأوثان وعبادة الله الواحد القهَّار. وهكذا تكفَّل يوسف بحياة النَّاس الماديّة بما اختزنه لأقواتهم في سنوات الجدب، وبحياتهم الرّوحية، بما بثّه في نفوسهم من عقيدة التوحيد.

وهذا ما ينبغي أن يكون لصاحب الدّعوة من يقظة في انتهاز الفرص السّانحة حين يتهيّأ الأنس إليه، والثقة به؛ فلا يترك المجال لغيره ممّن يرغب في الولاية، وهو لا يستطيع أن يتحكّم في عواطفه، أوْ لا يحسن التصرف، أو ينحاز إلى فئة دون أخرى، فيكون التطاحن من أجل الخبز، أو نحو ذلك ممّا يعود على مصر بأنكى أنواع البلاء.

يُروى أنه قيل ليوسف: لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال: أخشى أن أشبع، فأنسى الجائع. ولعلّ هذا ما يبرّر طلب يوسف إلى الملك أن يوليه مصر. ولكن العهد العتيق يذكر أنّ فرعون مصر هو الذي عرض عليه الولاية، كما هو ينفرد بذكر جزئيات ثانوية لم ترِد في القرآن، وتتعلّق بمراسم التولية في ذلك العهْد.

القرآن الكريم	العهد العتيق
٤٥ ـ وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي. فَلَمّا كَلَّمَهُ، قَالَ: إِنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ.	١٤ ـ وقال فرعون ليوسف: انظر! قد أقمتُك على أرض مصر.
٥٥ ـ قال: اجْعَلْنِي على خَزَائِنِ الأَرْضِ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.	٢٤ ـ ونزع فرعونُ خاتمه من يده وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب خزّ، وجعل طوقاً من الذهب في عنقه.
٥٦ ـ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ. نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ، وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ	٤٣ ـ وأركبه مركبته الثانية ونادوا أمامه: اركعوا، وأقامه على جميع أرض مصر.

ويفاجئنا العهد العتيق بصورة غريبة عندما يدخل عليه إخوته فيعرفهم دون أن يعرفوه. فقد ذكر أنه وصفهم بالتجسّس، وحبسهم ثلاثة أيّام؛ ثمّ أطلق سبيلهم، واستبقى أخاهم شمعون، وقيّده بمرأى منهم، حتى يعودوا إليه، ومعهم أخوهم الصغير (بنيامين).

وهذا التهديد من يوسف إن حملناه محمل الجدّ، فلا بدّ من القول بأنّه يحمل حقداً دفيناً على إخوته وهو ما يجب أن يُبْرأ منه.

أمّا القرآن، فقد ذكر أن يوسف أكرم وفادتهم، وردّ إليهم ما دفعوه من ثمن دون أن يُشعرهم، رجاء أن يُغريهم هذا بإحضار شقيقه، وهدّدهم بلطف إن لم يأتوا به. ولم يرِدْ شيء ممّا ورد في العهد العتيق من إساءته لإخوته، إذ أنّ ذلك لا يتّفق والصّورةَ التي رَسمها القرآن وأبرزَ معالمها لشخصية يوسف، وما اتّسمت به من حلم وإخلاص وبرّ، وهو الذي علّمه ربُّه وأحسن هدايته وطهّر قلبه من الحسد. فقال منوِّهاً بشأنه:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤].

ألَم يقلْ لإخوته لما رجعوا إليه وذكّرهم بما فعلوا؟

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف: ٩٢].

القرآن الكريم	العهد العتيق
٥٨ ـ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ	٧ ـ ولمّا رأى يوسف إخوته
فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ	عرَفهم، فتنكّر لهم وكلّمهم
لَهُ مُنْكِرُونَ.	بجفاء، وقال لهم:
٥٩ ـ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ	من أين قدِمتم؟ قالوا: من
قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ	أرض كنعان لنبتاع طعاماً.
أَبِيكُمْ. أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي	٨ ـ وعرف يوسف إخوته،
الْكَيْلَ	وأمّا

وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ؟	هم فلم يعرفوهُ.
٦٠ ـ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ	٩ ـ فقال لهم: أنتم جواسيس،
كَيْلَ لَكمْ عِنْدِي وَلاَ	وإنما جئتم لتجسُّوا ثغور
تَقْرَبُونِ.	الأرض...
٦١ ـ قالوا سنراود عَنْهُ	١٧ ـ فجلعهم في الحبس ثلاثة
أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ.	أيّام...
٦٢ ـ وَقَالَ لفتيانه: اجْعَلُوا	٢٤ ـ فتحوّل عنهم وبكى.
بِضَاعَتَهُمْ في رحالهم لعلهم يَعْرِفُونَهَا إِذَا	من بينهم شمعون، فيقيِّده
انْقَلَبُوا	بمشهدهم
إلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.	

وهكذا فإن المُتأمّل في هذه القصّة يدرك بَعدَ المقارنة انفراد القرآن العظيم بالإيجاز البليغ في عرض أحداثها، وإبراز المعالم الرُّوحية فيها، مثل تبشير يوسف عن طريق الوحي لمَّا ألقاه إخوته في الجُبّ، بأنّ الله سيخلِّصه ممَّا هو فيه، وسينبئهم بما فعلوا.

ومثل قول يعقوب لمَّا اشتدّ به الأسى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: ٨٦].

يقول الأستاذ الدكتور نعمان السامرائي: «ويلاحظ أن التوراة تركز بشكل عام على تفاصيل الخبر، وجزئيات الوقائع، بينما يركز القرآن الكريم على الحوار، ويهمل إلى حد كبير الكثير من التفاصيل، بمعنى آخر أن منحى التوراة منحى تاريخي سردي، بينما منحى القرآن أشبه ما يكون بتفسير حقائق التاريخ».

إننا بهذه الطريقة نستطيع أن نقيس ما ورد في التوراة على القرآن الكريم، وأن نستخرج الزيادات والمبالغات منها، فنقارنها بالأساطير والخرافات. ولكن دون أن ننفي الحدث بعينه أو ننكره، أو نجد له تأويلاً يتعارض مع حقيقته في القرآن الكريم والسنة.

إن هذا هو ما دفعني إلى وضع هذا الكتاب، لعله يكون تنبيهاً وتحذيراً لأولئك الذين يلجون أبواب البحث، فينكبون على مصادر غريبة، أو استشراقية، أو على كتب من سبقهم فكتب في هذا الموضوع، ينقلون منها اعتماداً على الثقة بأصحابها. وجلّ من لا يخطىء.

الخاتمة

تعيش الأمتين العربية الإسلامية، والإسلامية، هذه الأيام محناً عصيبة، تجاوزت تصورات التقدير والإمكان، فقد تكالب عليها الزمان والمكان والإنسان، ولم تعد الأخطار متوقعة من الشمال أو الجنوب، بل صارت من فوقها ومن أسفل منها. وما إن تنمو خوافيها، حتى تنقضى عليها العقبان والنسور والغربان. هم في الغرب يبنون، ويعملون من دماء أبنائها، ويستمرون في دعم حضاراتهم مستغلين هاتين الأمتين حتى نخاع النخاع فيها.

وجاءت مشكلة فلسطين الأبدية، فجاؤوا بمشجب، أو جاؤوا يبحثون عن خاتم سليمان المفقود، كما تروّج الأساطير والخرافات؛ حجتهم المعلنة العودة إلى أرض الميعاد، وبواطن أمورهم أنهم جاء يحملون الحقد والكراهية لسكان الأرض جميعاً، وعلى رأس قائمتهم العرب مسلمين ومسيحيين، والمسلمين قاطبة.

ورحنا نحن نستخدم لهم صفات أشدها شناعة أننا سمينا وجودهم: «إسرائيل»، وما لهؤلاء صلة بإسرائيل، ثم أنعمنا عليهم بتسميتهم: «دولة»، وليس لهم دولة، وإنما الدولة

للفلسطينيين. ووقعنا في المصيدة عندما دعونا تجمعاتهم بـ «**المستوطنات**»، ومعنى الاستطيان أن يبقى المستوطين ولا يرحل. بل جعلنا اعتداءهم: «**الاحتلال**»، والاحتلال يعني وضع اليد والتملك، وليس لهم حق ولا نصيب في الأرض. وهكذا قلنا عن فعلتهم الشعناء: «**الأرض المغتصبة**»، والمغتَصَب، جُرِّد من كرامته، وانتُزعت إرادته؛ وتمادينا في الاستخذاء والانكسار، فاستسلمنا لترديد: «**الوطن السليب**»، والسليب أو المسلوب لا يعود إلى أهله ثانية.

إن لفعل هذه المسميات: صفات وأسماء، فعل السحر في تفتيت العقل البشري، وتجميد إرادته الفكرية والنفسية، وكانت الكاثة التي لا علاج لها، حينما نسينا اسم فلسطين، فاستبدلناه بـ «**الشرق الأوسط**»، وهذا يعني في مصطلح اليهود أننا لا نساوم على فلسطين، بل إن مطلبنا من النيل إلى الفرات: أي الشرق الأوسط، عرضاً وطولاً، ولم يقتصر الأمر على هذا، بل باركنا فريقاً من اليهود، على أساس أن هؤلاء يهود، وأولئك صهاينة، أو أن هذا الحزب يساري معتدل، وذاك متطرف متعصب.

تلك أمور في السياسة، وهي أمور وهي أمور، تُعد البُنى الأساسية للقضية التي دار حولها الكتاب مع أنه لم يلامسها أو يتفوه بها، ذلك أن الذين كتبوا في الموضوع كانوا منطلقين مبدئياً من واقع فلسطين، وشعب فلسطين. فقد تجاوز هؤلاء الكتابة عن الغزو الصليبي والنهب الاقتصادي كما تمثل في بريطانيا وفرنسا.

ومن ثم لم نكتفِ بإساءة استخدام التعبيرات المثبِّطة والمُحَبِطة، بل انتقلنا إلى مجال الدين، فتحركت مشاعرنا المكبوتة، لنرجم اليهود، وليت هذا الرجم كان بحجارة من صنعنا، وإنما كانت حجاة مستوردة من غيرنا، فأخذنا نستدل على انحطاط عقلية اليهود بأقوال أهل الكتاب: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة: ٨٢].

فمرة قال هذا الغربي، ومرة قال ذاك المتستشرق، ونُسبغ على كل واحد منهم لقب «عالم» حتى نعطي كتاباتنا قيمة ومعنى. وعدنا إلى التوراة، لتقول لنا هذا حق وذاك باطل، إنها في نظرنا التاريخ والرسالة. ونسينا أن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤].

لقد أمرنا القرآن أن ننظر في التوراة، ولكن في ضوء القرآن والسنة، والعقل، وحيث إن التوراة المحرفة مكتوبة بدقة فائقة، فإن الاحتياط في الاستشهاد بما ورد فيها واجب ديني، وهو من مقتضيات العلم، فهناك قصص قرآني، لا يختلف عن القصص التوراتي إلا في الصياغة والتغبير، ويمكننا بعد أن نجرد القصص التوراتي من تشويهاتها أن نوفق بينها وبين القصص القرآني، ولكن علينا أن لا نغلو ونسرف في الغلو، فنرفض كل الرفض،

ونتهم بالغ الاتهام، حتى تصبح الأساطير والخرافات، والأكاذيب، والتشويهات جزءاً من القرآن الكريم، بينما هو كلام الله المنزه عن كل تكذيب، حتى نسمي كل ما لا يعجبنا بأنه أسطورة، فإن فعلنا ذلك، فسوف يسري هذا على القرآن الكريم، خصوصاً فيما يتفق فيه مع التوراة من القصص والأخبار.

وفي ضوء هذا وجدتَ كيف أن قصة آدم وحواء موجودة في القرآن الكريم، ولكن من دون الحية والتفاحة، وعرفتَ أن قصة الطوفان خاصة بنوح عليه السلام، وليس بغضب الآلهة على أنكي في الأسطورة السومرية. ووجدتَ أن إبراهيم عليه السلام وبنيه موثقة في القرآن الكريم. أما قصص يوسف وموسى وداود وسليمان، فقصص قرآني غير مكذوب، وقل مثل هذا عن قصتي يونس وطالوت عليهما السلام... إلخ.

وإنه إذا كان للمفردات السياسية فعل السحر في الأذهان في تحطيم المعنويات، فإن النَّيل من القصص القرآني ـ بطريق غير مباشر ـ عن غير قصد، يسبغ على هذه التجريحات طابع الحقيقة واليقين، فنصدقها، ونؤمن بها، ونتداولها؛ وبهذا يتحقق الهدف الآخر لليهود، وهو مسخ العقلية العربية المضمحلة حتى الآن، حين تتسرب الشكوك إلى أنفسنا فيما يورده القرآن منزّهاً أنبياءه ورسله عن كل شائبة وعائبة.

ولا أدري بعد، هل يحق لنا أن نفضح التوراة عندما نصنع كتباً تقص فيها حكايات التوراة الباطلة عن الأنبياء والمرسلين؟

لقد خاطب القرآن الكريم بني إسرائيل خاصة واليهود عامة، فدعاهم إلى الإيمان بالله الواحد القهار، وبمحمد ﷺ خاتم المرسلين والأنبياء، واتهمهم بالكذب وقتل الأنبياء والكفر بنعم الله، والغدر... إلخ. فما لنا نحن ننسخ المطاعن في مثل يعقوب عليه السلام، وداود وسليمان عليهما السلام، ونحكيها كما تحكيها التوراة؟ وكلنا يعلم أن هذه التوراة المحرفة ليست من عند الله، بل إنها لا تعكس حتى ما سبها من خرافات وأساطير، وإن ضمت بين جوانبها ترسبات وثنية ورواسب من ثقافات الشعوب.

وليس هناك من خلاف في الاستفادة من هذه المعلومات التي تتضمنها التوراة المحرفة في البحوث والدراسات الاجتماعية والحضارية، ولكن على الكاتب المسلم، الذي يضع كتاباً في العلوم الدينية، أو يكتب كتاباً ثقافياً، أن يتجنب مثل تلك السفاسف والنزوات العابثة التي تمس الأنبياء والمرسلين، إذ إن مجرد ترديد هذه الأخبار مَزْلق، الأولى بنا تجنبه.

ونحن إذ نمنع النيل من الصحابة رضوان الله عليهم، ونمتنع عن الحديث عن الفتنة، ونحترم خلفاء مثل عمر بن عبد العزيز، فكيف نقبل أن نعيد تلك الأقوال، ولو على سبيل الفضيحة والنكران، فما الذي يسوغ لنا نقل ذلك التجديف في حق الله سبحانه، وحق أنبيائه ورسله؟!

هذا مجرد رأي، ولعل كِتابنا في هذا يدق ناقوس الخطر.

المصادر

التوراة، (القاهرة: دار حلمي، ١٩٧٠ م).

الطبري، تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، (مصر: دار المعارف، ١٩٥٧ م).

ابن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، ط أولى، ١٩٦٦ م).

ابن عاشور، الطاهر، تفسير التحرير، (تونس: مطبعة الدار التونسية، ١٩٨٤ م).

المراجـــع

أحمد، الأمين الحاج، أشراط الساعة الصغرى والكبرى، (جدة: دار المطبوعات الحديثة، ط أولى، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م).

إبراهيم، محمد إبراهيم، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، (القاهرة: دار النصر للطباعة، ط ٢، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ م).

آتلخان، جواد رفعت، الإسلام وبنو إسرائيل، ترجمة يوسف وليشاه، (الرياض: جامعة الإمام، ١٤٠٤ هـ).

الأحمد، نجيب، فلسطين تاريخاً ونضالاً، (عمان: دار الجيل، ط أولى، ١٩٨٥ م).

البار، محمد علي، المسيح المنتظر وتعاليم التلمود، (الرياض: الدار السعودية، ط أولى، ١٤٠٧ هـ).

بارودي، رياض، اليهودية العالمية، (بيروت، دار الثقافة، د ـ ت).

بدران، محمد بدارن، التوراة: العقل... العلم... التاريخ، (القاهرة: دار الأنصار، ط أولى، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م).

التل، عبد الله، جذور البلاء، (بيروت: دار الإرشاد، ط أولى، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧١ م).

الجـار، حسيـن فـوزي، أرض الميعـاد، (القـاهـرة: مطـابـع دار الكتاب المصري، ط أولى، ١٩٥٩ م).

الخليلي، جعفر، الملخص لكتاب العرب واليهود في التاريخ، (بغداد: دار الرشيد، ط ٢، ١٩٧٧ م).

خيـاطـة، محمـود وحيـد، قـرأت فـي التـوراة، (دمشـق: مطبعـة العجلوني، ١٩٨٦ م).

ديـب، سهيـل، التـوراة بيـن الـوثنيـة والتـوحيـد، (بيـروت: دار النفائس، ط ٢، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م).

راشـد، سيـد فـرج، القـدس عـربيـة إسـلاميـة، (الـريـاض: دار المريخ، ١٩٨٦ م).

رمضـان، محمـد أحمـد، إسـرائيـل ومصـر الإنسـان المعـاصـر، (عمّان: دار الكرمل، ١٩٨٧ م).

زيتون، عبد الوهاب، الأصولية في اليهودية، (بيروت: المنارة، ط أولى، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٥ م).

سعفـان، كـامـل، دراسـة فـي التـوراة والإنجيـل، (القـاهـرة: دار الفضيلة، ١٩٨٩ م).

السفـاريني، محمـد. أهـوال يـوم القيـامـة وعـلامـاتهـا الكبـرى، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٦ م).

سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، (دمشق: العربي، ط ٤، ١٩٧٥ م).

شتيوي، محمد شلبي، التوراة دراسة وتحليل (الكويت: مكتبة الفلاح، ط أولى، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م).

ابن الشريف، محمود، الشعب الملعون في القرآن، (القاهرة: مطبعة دار النصر، ط أولى، ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م).

شلبي، أحمد، اليهودية، (الإسكندرية: مطبعة المعرفة، ط ٥، ١٩٧٨ م).

شنودة، زكي، اليهود (القاهرة: مكتبة النهضة النصرية، ط أولى، ١٩٧٤ م).

ظاظا، حسن، القدس مدينة الله...؟ أم مدينة داود...! (الإسكندرية: جامعة الإسكندرية ١٩٧٠ م).

طعيمة، صابر، بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، (بيروت: عالم الكتب، ط أولى، ١٤٠٤ هـ).

التاريخ اليهودي العام، (بيروت: دار الجيل، ط ٢، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م).

اليهودية بين الدين والتاريخ، (القاهرة: شركة الطباعة الفنية، ط أولى، ١٩٧٢ م).

عارف، عارف باشا، تاريخ القدس، (مصر: دار المعارف، ١٩٥١ م).

عبد العليم، مصطفى كمال، وسيد فرج راشد، اليهود في العالم القديم، (دمشق: دار القلم، ط أولى، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م).

عبد الغني، عبود، اليهود واليهودية والإسلام، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٨٢ م).
عبد اللطيف، محمد عبد الرحمن، وعد الله ليس لبني إسرائيل، (القاهرة: الهيئة المصرية العام للتأليف والنشرر، ١٩٧١ م).
العفتان، سعد خلف، حقيقة اليهود، (حائل: مطبعة المحيسن، ١٩٨٩ م).
العقاد، عباس محمود، إبراهيم أبو الأنبياء (بيروت: دار الكتاب العربي ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ م).
طوالع البعثة المحمدية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط أولى، ١٩٦٩ م).
غارودي، روجيه، فلسطين أرض سماوية، (دمشق: دار طلاس ١٩٩١ م).
الفاروقي، إسماعيل راجي، أصول الصهيونية في الدين اليهودي، (القاهرة: دار التضامن للطباعة، ط ٢، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م).
فلسطين تاريخها وقضيتها المرحلة الثانية، (بيروت: المؤسسة الفلسطينية، ط أولى، ١٩٨٣ م).
الكتاب المقدس (القاهرة: دار حلمي للطباعة، ١٩٧٠ م).
كنيون، كاثلين. م، الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة، ترجمة شوقي شعث وسليم زيد، (دمشق: دار الجيل ١٩٩٠ م).

ناجي، لاسي، المفسدون في الأرض، (دمشق: مطبعة العربي، ط ٢، ١٩٧٣ م).

نعناعة، محمود، المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل، (القاهرة: المطبعة الفنية الحديثة ١٩٧٢ م).

نفرة، التهامي، سيكولوجية القصة في القرآن، (تونس: الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٧٤ م).

هيكل، يوسف، فلسطين قبل وبعد، (بيروت: دار العلم للملايين، ط أولى، ١٩٧١ م).

يحيى، السموأل، إفحام اليهود، (القاهرة: مكتبة الزهراء، ط ٣، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م).

الفهـــرس

كتب للمؤلف

المنشورة:

ـ نظرية الرواية الشفوية للشعر الجاهلي (ترجمة ١٤٠٧هـ/١٩٩٧م).

ـ الشعر والغناء في ضوء نظرية الرواية الشفوية (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

ـ ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

ـ حماد الراوية بين الوهم والحقيقة (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

ـ الشعر المنحول: قضايا ونصوص (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

ـ الرؤية العرقية عند العرب حتى نهاية العصر الأموي (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

ـ بحث صدر عن مركز البحوث ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، عدد ٢٢، بعنوان: تاريخ تغلب القديم The Ancient History of Taghlib.

ـ اليهود دراسة تاريخية (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

ـ خطر التوراة على الكُتّاب العرب المحدثين (١٤١٩هـ/١٩٩٨م) «كتابنا هذا».

ـ خلف الأحمر: الشاعر العالم.

تحت الإصـــدار:

ـ التراث الشفوي للشعر العربي القديم (ترجمة).

ـ الدم المقدس عند العرب.

ـ الأسس الفنية لدراسة الشعر الجاهلي.

ـ قضايا فكرية في الشعر الجاهلي.

ـ مسائل خلافية في الشعر الجاهلي.

ـ التاريخ السياسي الشفهي للجزيرة العربية.

ـ تحليل القصائد.



ـ الأسس الموضوعية لدراسة الشعر الجاهلي.

ـ كتابات غربية في تاريخ الشعر الجاهلي.

ـ توثيق الشعر الجاهلي.

ـ العلاقات الأدبية بين العرب والهند.

ـ الذئب في العلم والتاريخ.

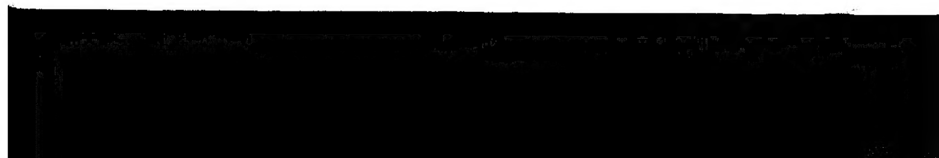
ـ الذئب في الخرافات والأساطير.

ـ الذئب في الشعر العربي القديم.

ـ رسالة في الذئب.

ـ الذئب العربي.

ـ رسالة دكتوراة غير منشورة من جامعة أدنبرة ـ سكوتلنده ـ بريطانيا (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) بعنوان: شعر تغلب The Poetry of Taghlib.



إليكم

كلمة حق، تنير وتهدي، وتطلُّع إلى مستقبل موعود، فلن نظل هكذا نسمع ونردد، ننقل ونعيد، هَدْرٌ للطاقة وضَحكَ على العقول؛ إنها قضية الدين، ومصير الإنسان، فليست التوراة المحرَّفة مصدراً أولياً قبل القرآن، وإنما هي مصدر ثانوي، يجب الحذر مما فيه من عيوب ونقصان. وهكذا ما يقوله الآخرون مِن غير برهان.

فلنستيقظ، ونتنبه، ونفكر، ونحقق، ولم يفت بعدُ الأوان.

